أيوب بنبري

رُتَاي

تبتسمان للموت قريبا

رواية قصيرة

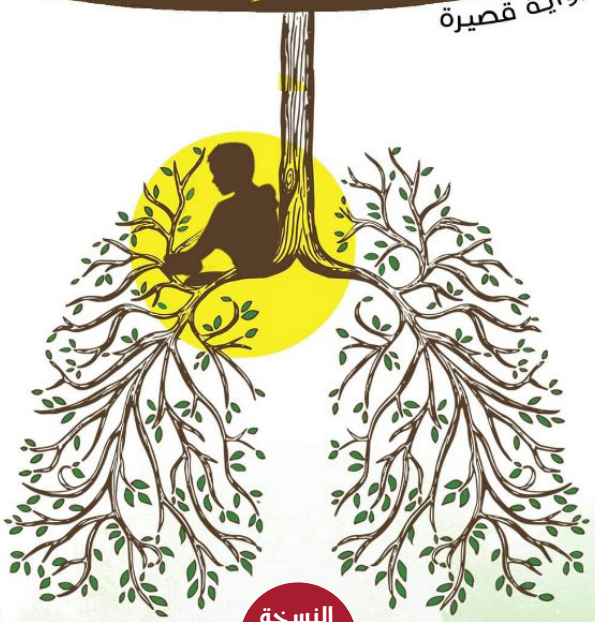

النسخة الإلكترونية

خيال
للنشر والترجمة

أيـوب بنـبري: كاتـب، مـدون وناشـط ثقـافي مـن الجزائـر. عضو بمنظمة المؤلفين الأكاديميين الأمريكية.
أشرف عـلى عـدة مشـاريع ثقافيـة مـن أهمهـا: منشـورات كتبيديا ودار الكافي للنشر والتوزيع والترجمة.
صدر للكاتب أيضا:
ـ قبل أن تبدأ البرمجة
ـ رسائل يوسف

أيوب بنبري

رئتاي تبتسمان للموت قريبا

النسخة الإلكترونية

رواية
قصيرة

الإهداء

في العادة يضع المؤلفون نص إهداء لشخص أو لعدة أشخاص ويجتهدون في كتابة عبارات المجاملة..

أهدي كتابتي هذه إلى المجتمع الذي نبذ يوسف طفلاً ومراهقاً وشاباً..

إلى المرأة الوحيدة التي فهمت شكل حاجتي إليها دون أن أتكلم.

الفصل الأول

نحن نولد ملائكة، صفحة بيضاء خاوية يخربش فيها المجتمع كيفما شاء .

استلقت فاطمة على سرير العيادة بهدوء راسمة بشفتيها ابتسامة صغيرة، غير مبالية بابنها الذي خرج لتوه من رحمها، ولا بالدماء التي خلفها على السرير أو بالقنبلة التي فجرها إرهابيون في محلٍ مقابلٍ للعيادة. الممرضة المشرفة على توليدها تحبو ببطء من تحت النافذة حاملة شمعة في إحدى يديها، مما يوحي بخوفها من رصاصٍ محتمل، أو قنبلة ثانية .

أوائل التسعينيات جلبت معها الكثير من القنابل المشابهة، والدم، والغبار الكثيف، وأقنعة الحزن التي كان يلبسها الجزائريون مرغمين غير مخيرين .

ومثلما كانت فاطمة غير مبالية بكل ما يحدث، أتيت أنا إلى العالم غير مبالٍ كذلك، خرجتُ صامتاً وبقيت كذلك ثلاث أيامٍ متتالية. لم أبكِ مثل غيري من الأطفال، لم أكن أتحرك إلا لحاجة، ولم أطلب حليب أمي، وفي صبيحة اليوم الرابع عدت طفلاً أبكي وأطلب حضن أمي، وحنانها، وحليبها.

نشأتُ نشأةً طبيعيةً بين أم ماكثة بالبيت ودكتور يعرفه الجميع. الدكتور محمد، والدي، كان دائما رجل أفعال،

كلامه قليل، وإن تكلم قال كلاما في محله، عُرف بين الناس بالطيبة والرزانة والالتزام.

فاطمة، أمي، لطالما كانت تترأس جلسات النساء المعتادة، وهذا لِما امتازت به من كاريزما قوية وقدرة على الإقناع والتأثير بالآخرين، كان كل فعلٍ تقوم به محط أسئلة وعلامات استفهام، فمثلاً عندما جاءت النسوة إلى منزلنا يباركن لها هذا المولود الجديد وسألنها عن سبب تسميته، فإنها رسمت ابتسامتها المعتادة الخالية من أية مشاعر وقالت لهن أنها رأت حلماً أُخبرت فيه أن تسميني يوسف، وأن وليدها هذا سيكون له شأن عظيم يوماً ما عندما يكبر، لكنها رفضت أن تحكي هذا الحلم لأي شخص، حتى لي أنا عندما كبرت وسألتها عنه بعدما سمعت هذه القصة .

***

اهتم والداي بي أحسن اهتمام لأني كنت أول ضيف يأتي إلى حياةِ الأسرةِ الصغيرة، وسعيا دائما لينميا فيّ حباً تجاه الثقافة والأدب، فكنت قبل أن ألتحق بالتعليم الحكومي أجيد القيام بعملياتٍ حسابيةٍ بسيطة، وأحفظ

الحروف الأبجدية والأبجدهوزية، كما كنت أتابع المجلات الموجهة للأطفال أيضاً، أقرأ كل كلمة منها بشغف، وأعلم موعد صدورها، وتكلفتها، وأتنبأ بما سيكون في الأعداد المقبلة منها .

هكذا كان أبي ينقل إليّ اهتماماته بالأدب واللغة، ويحثني على الاكتشاف والتجربة، ويكافئني كلما قدمت له ابتكاراً أو إنجازاً بحجم طفولتي، أما أمي فكانت تحرص على ترسيخ تلك المعارف في ذهني ومراجعتها معي، كما كانت تحكي لي كل ليلة قصصاً من السيرة والتاريخ، أو من الأدب العربي والمترجم، فتشبعت منذ صغري بكلمات المنفلوطي والعقاد وجبران وغيرهم. ومع التحاقي بالمدرسة الحكومية، بدأت نتائج بلوغي الفكري تلك تتجسد علناً، فكنت دائماً ما أحرز إحدى المرتبتين الأولى أو الثانية أثناء تعليمي الابتدائي على مستوى المقاطعة وأحيانا على مستوى ولاية الشلف.

***

جلست في الكثير من الأحيان أقارن بين طريقة تعامل والديّ معي، فوالدي دائماً ما يحفزني على بذل مجهود في

الدراسة، واكتشاف معلومات جديدة، وصناعة أي شيء ولو كان دون قيمة، كما أنه كان يكافئني على كل ذلك بمبالغ مالية بسيطة، أو جولة ترفيهية، أو هدية. أما والدتي فكانت لا تسمح لي بالخروج من المنزل، لا للعب مع أصدقائي، ولا للتمشية، ولا حتى لأداء الصلاة في المسجد القريب، وقد أيقنت آنذاك أن منعها لي لم يكن انطلاقا من خوف الأم على ابنها، بل لأنها كانت تتعامل معي على أنني مجرد شيءٍ أو أداةٍ تملكها; لا أحد يملك الحق في التصرف فيها، ولا في القيام بأي حركة من دون مباركتها.

تعلمنا اليوم أن أجر الصلاة في المسجد أكبر من الصلاة في منازلنا، وقد أخبرنا الأستاذ أن نلتقي في مسجد الحي لأداء صلاة المغرب سوياً، فهل تسمحين لي بالذهاب للصلاة رفقة زملائي ومعلمي؟

– امشي تصلي هنا وترجع لدراستك، هنا أو هناك.. المهم أنك تصلي

أجل، لقد كانت "لا" أداة تقيّد حركتي، لم أكن سوى أداة بيد أمي، وكانت تسيّرها كيفما تشاء. بالإضافة لكل

ذلك، تعاملت أمي مع دراستي بمنطق رأيته مجحفاً في حقي كتلميذٍ صغيرٍ ونجيب، فحين كنت أحرز نقاطا ممتازة لم تكن تكافئني عليها أو تظهر لي السعادة بها، أما إن حدث وأخطأت في حل تمرين ما أو جزئيّة منه فكانت تغلق باب الغرفة مباشرة وتشرع في ضربي لعدة دقائق متواصلة بحزام والدي الجلدي، أحياناً، وبسلسلة من الصفعات، أحياناً أخرى، وقد كانت بُنيتها الجسدية تمنع جدتي وعمتي من محاولة تخليصي منها. كلُّ هذا ولّد في داخلي شعوراً بالنفور من الدراسة الحكومية، فتحولَت هذه الأخيرة بالنسبة لي من شيء أجيد القيام به، إلى شيء أفعله مكرهاً وخوفاً من بطش والدتي.

تعرضتُ للكثير من السخرية من قبل زملائي في المدرسة، اختلافي عنهم بدا واضحاً في تلك الفترة من حياتي; طريقة اللباس، النبوغ المبكر، الإجابات الحاضرة على كل سؤال يطرحه الأستاذ، والأهم من ذلك انعزالي عن اللعب معهم، وفي كثير من الأحيان وصلت تلك السخرية إلى حد مضايقتي وتعرضي للضرب الجماعي .

ليت فاطمة تركتني أواجه العالم بيدين متسختين من أثر اللعب بدل أن تلوث روحي بكرهه .

ذات مساءٍ تم عرض فيلم أتذكر تفاصيله جيداً،"بينو-كيو"، تلك الدمية الخشبية التي صنعها أحدهم بخيوط تحركها أياد خلف الستار، كانت الحكمة منه ألا يكذب الصغار حتى لا تطول أنوفهم، لكنني استنتجت حكمتي الخاصة: " أن العالم يعتبرني دمية."

لطالما امتلك محمد خيطاً يحركني به أيضاً بصفته والدي، غير أنه لم يستعمله أبداً، فقد أراد أن يصنع مني رجلا لا يحني ظهرَه العالمُ أجمع، فكان يحوّل ملامح وجهي الذي صفعته والدتي في غيابه إلى وجه باسم. وكان كل اكتشاف، وكل سؤال، وأي عمل أقوم به يصاحبه مبلغ صغير، حلوى أو رحلة إلى البحر، حيث تنقر النوارس الماء لتطعم صغارها السمك .

أذكر أن والدي أخذني ذات مرة في رحلة إلى البحر أحسست حينها أن حياة الأسماك الصغيرة التي يقلبها الموج كيفما شاء قبل أن يلقيها للصخور تشبه حياتي كثيراً

لذا قررت أن تصبح الأسماك صديقتي، وأن أخلصها مما هي فيه من تكويرٍ وتقلب، وآخذها معي .

وضعت بعضاً منها في قارورة وجدتها ملقاة على الشاطئ بعد أن ملأتها بماء البحر، أخبرني والدي أن هذه هي البيئة المناسبة للأسماك، وأن أي تغيير كالذي أقوم به سيتسبب في موتها، غير أنني تجاهلت قوله وواصلت ما أفعله، وقابلني هو بابتسامة صامتة.

قررت أن آخذ أصدقائي معي، فماء البحر الذي تعيش به هو نفسه الذي في القارورة، ثم إن أهلها تخلو عنها، والنوارس ستطعمها لأولادها، ساعدني أبي بثقب القارورة من الأعلى ثم وضعها في الصندوق الخلفي للسيارة، وعدنا إلى المنزل معاً .

نمت تلك الليلة مباشرة من فرط التعب، لأجد نفسي صبيحة اليوم الموالي قد ارتكبت خطأً فادحاً، وهو أنني قتلت أصدقائي. حزنت يومها كثيرا، وتذكرت كلام والدي، وعلمت أن ابتسامته الصامتة تلك كانت ليساعدني على رؤية الحقيقة بنفسي، وأيقنت أنّ الله خلق

كل شيء في بيئته الخاصة بحكمة، فإن غادرها لن يعيش واستنتجت أن بيئتي الخاصة هي هنا بين عائلتي.

الفصل الثاني

أن تدرك العالم مبكرا، هذا يعني أنك ستصبح مميزا... مميزا عن الجميع، هكذا سيتخلى الجميع عنك، فتصبح وحيدا، لأن العالم لا يعترف بالمميزين.

يقال إن الفهم الزائد يؤدي في بعض الأحيان إلى نتائج عكسية، وهو ما حدث معي، فقد كان ذكائي من جهة، وطفولتي من جهة ثانية يعملان غالباً ضدي .

بدأت ألاحظ في سن مبكرة تصرفات وحوادث حاولت فلسفتها ولم أستطع، مما سبب لي حزناً عميقاً لم أفصح عنه حينها.

ها أنا ذا أشاهد فاطمة، أمي، تبكي في غرفتها بحرقة وأبي يخرج صامتاً دون أن يقول أي كلمة، أو يلتفت إليها، تسرع أمي لتحضنني ودموعها تمتزج بدموعي التي بدأت تسيل دون أن تعرف لها سبباً، طفلٌ صغيرٌ وجد أمه تبكي لن يجد شيئًا يواسيها به أو يفعله لأجلها غير البكاء معها.. أسمعها وهي تدعو على والدِي وعائلته كلها بالشر.

– الله لا تربح بوك والزريعة تاعوا

– أمي، ماذا حدث؟

– سأتخلص منه، سأتخلص منكم جميعاً، كل العائلة..

هكذا بدأت المحطة الثانية من حياتي..

من أسوء ما قد يقابل الأولاد في مثل سني، أن يختاروا حب أحد والديهم على حساب الآخر، وأن يفعلوا هذا سرًا مع يقينٍ تامٍ بأنهم لن يستطيعوا كره أحدهما ونبذه للأبد، عالِمين أن لا ذنب لهم في ما يحصل حولهم، لكنهم فقط يدفعون ضريبة مجيئهم للعالم .

بناء على فلسفتي الصغيرة هذه، كرهت والدي ونبذته، فقط لأنه كان يجعل أمي تبكي، "أياً كان السبب فوالدي شخص شرير الآن لأن والدتي تبكي"، هذا ما كنت أحدث به نفسي دائماً.

فجأة ودون تحضيرات مسبقة، قرر والدي أن علينا الانتقال معه إلى حيث يعمل كمدرس، إلى ولاية وادي سوف.. وأصبح يوسف تلميذاً في الصف الخامس بمدرسة العربي بوغزالة.

***

وادي سوف كانت المحطّة الثالثة من حياتي، بالرغم من كل ما تعرضت له في الشلف، إلا أن بها على الأقل جدتي التي تحضنني بحب بعد كل جلسة ضرب أتلقاها من والدتي، لكن الأمر مختلف هنا، أنا وحيد في الوادي

وغضب أمي من انتقالنا المفاجئ هذا أنا من سيدفع ضريبته لا محالة.

حملتنا طائرة إلى وادي سوف، وبالرغم من أنها المرة الأولى التي أرى فيها طائرة أمامي وأركبها، إلاّ أنني لم أشعر بشيء سوى الخوف مما سيحصل عند وصولنا، كنت أتفحص نظرات والديّ وصمتهما طيلة ساعات الرحلة، وأجول ببصري عبر النافذة المستديرة لأضع بصمة وداعٍ أخيرة على مدينتي الحبيبة.

وصلنا إلى الوادي، ثم إلى حي المعلمين، وأخيراً إلى المنزل، تجولت قليلاً في بيتنا الجديد أكتشف زواياه وغرفه، ليقع ناظري على شيء في غرفة أبي، شيء مغطى بإزار أبيض، شيء كبير بطول قامتي .

مددت يدي على الغطاء بعد أن طمأنت نفسي بأن والدتي تأخذ حماماً ومن المستحيل أن تخرج الآن، ثم نزعته، لقد كان جهاز كمبيوتر !

فجأة، انتابني فضول شديد وفرحة عارمة لا أدري سبباً لها، فأسرعت للجلوس أمامه أتفحص معدّاته بسعادة.

– هذا هو جهاز الحاسوب الذي رأيت صورته في كتاب التربية المدنية يا أبي؟

– نعم يوسف.

– كم هو رائع، كيف أستخدمه؟

– إنه معقد بعض الشيء يا ولدي، سأعلمك كل ما أعرفه عنه شرط أن تستمر في إحراز نقاط جيدة هنا.

حدث هذا فعلاً وأصبح والدي يخصص لي وقتاً مساء كل يوم ليعلمني أساليب التعامل مع الحاسوب وطريقة استخدامه. في البداية ظن أن ما أمر به مجرد شغفِ طفل يكتشف شيئاً جديداً، وأنني –مثل باقي الأطفال في مثل سني– سأطلب منه عاجلاً أم آجلاً شراء ألعاب حاسوب، غير أن هذا لم يحدث. كنت مهتما أكثر بطريقة عمل هذا الجهاز العجيب، أسأل عن كل شيء بطريقة تعجز أبي في كثيرٍ من الأحيان وأجرب.. أجرب كثيراً.

في تلك المرحلة تعلمت أسماء قطع الكمبيوتر وكيفية استبدالها ومعرفة القطع العاطلة، وتنصيب عدة أنظمة تشغيل، وإنشاء مجلدات وإخفائها، واستخدام البرامج المكتبية للكتابة، وإضافة صور وجداول، كذلك تنسيق النصوص بشكل صحيح، وحتى الطريقة الصحيحة لمسك لوحة المفاتيح والكتابة عليها بسرعة .

ذات يوم اقتنى لي والدي لعبة حاسوب وتركني أقوم بتثبيتها وتجربتها بنفسي، غير أنني قمت بالخروج منها بعد بضع دقائق فقط عوض الاستمتاع بلعبها ومكثت قرابة أسبوع أعمل خفية عنه، حتى أريته في النهاية ما كنت أعمل عليه. لقد غيرت شعار اللعبة وكتبت اسمي مكانه، كما أنني استطعت تغيير الموسيقى المصاحبة للعبة بأناشيد دينية، بل وأضفت بسملة تتلى كلما فُتحت اللعبة!

هذه الخطوة جعلت محمد على يقين تامٍ بأن ابنه لم يخلق ليلعب، بل ليبتكر، فبدأ معي مرحلة جديدة في حياتي مع الكمبيوتر، وأصبح يقتني لي كتباً ومقاطع فيديو تعليمية عنه .

أما عن المدرسة، فلم تختلف حياتي فيها عن المدرسة السابقة، أصبحت أكثر انطوائية، وفضلت أن أتعامل مع آلتي الجديدة بدل أن يعاملني البشر كآلة.

الفصل الثالث

أريد أن أركض بلا توقف حتى تتهالك كل أعضائي فأعود للعالم بلا شيء يمكنهم صفعه.

كانت أيامي الأولى في وادي سوف أشبه بالهدوء الذي يسبق العاصفة، شيء ما بدأ يحدث معي، أصبحت أحس أنّ العالم يدور من حولي، لم أعد قادرا على التركيز في دراستي، ولم أعد قادرا على الجلوس أمام الكمبيوتر أيضاً، ألم... ألمٌ لا يطاق.

الألم هو كل ما أشعر به داخل رأسي، وفي جميع أطرافي، كان السبيل الوحيد ليعبر جسدي عن ألمه وعن الاختناق الذي أشعر به هو البكاء بحرقة حتى يغمى علي.

في عدة ليالٍ كانت فاطمة تشعر بغيابي عن فراشي لتجدني نائماً على أرضية الحمام، أو جالساً بعينين مغمضتين داخل المرحاض، لم يجد أحد تفسيرا لذلك.

" المنزل الذي دخلناه لا يرحِّب بنا"، كان هذا تفسيري الوحيد..

وتزامناً مع سلسلة الحوادث الغريبة تلك، بدأت فاطمة أيضاً تعاني مثلي; أحياناً تجد نفسها ملقاة على أرضية المطبخ قرب المجرى بعد أن تستيقظ وهي تتذكر كيف جاءت إلى هنا وتقسمُ لوالدي أمامي أنها رأت

كائنات تسحبها، وفي عدة مرات كانت تستيقظ وعلى جسدها آثار جروح عميقة .

المدهش في الأمر أن أبي لم يتعرض لجميع هذه الأمور ولم يشاهدها أصلاً، ورغم ذلك فقد استجاب لطلب أمي وإلحاحي بالرجوع إلى الشلف. لم أحزن هذه المرة وأنا أركب الطائرة، بل كنت سعيداً لأنني سأعود لمنزلنا في الشلف.

مضت السنة السادسة من التعليم الابتدائي بسرعةِ بدايتها، نلت المرتبة الأولى على مستوى الولاية، وسمعت اسمي للمرة الأولى يبث عبر أثير الإذاعة المحليّة .

– يوسف، هذه هدية نجاحك.

– يبدو شيئاً كبيراً.. ما هو يا ترى؟

– افتح العلبة وانظر بنفسك..

أعتقد أن القارئ يمكنه أن يتخيل مكافأة والدي لي على نجاح كهذا; نعم، جهاز كمبيوتر.

خلال العطلة الصيفية وجدت لنفسي متسعا من الوقت لاكتساب معارف جديدة، تعلمت الغش في الألعاب، تعرفت على لغات البرمجة المختلفة، وبدأت

تعلم فن جديد يدعى الهندسة العكسية، وهي أن تفهم كيفية عمل برنامج ما، وتجد الطريقة التي شفرته بها الشركة المنتجة له وتفك تشفيره وتحوله إلى لغة الآلة، ثم تعدل على بعض الأوامر فيه لتمنح نفسك صلاحيات لم تكن موجودة، مثل استخدامه مجانا دون الحاجة لشرائه، أو تفعيل الخصائص التي يتطلب تفعيلها عادة مبلغا ماليا يدفع للشركة المنتجة .

طبقت ما تعلمته على عدة برامج، وَقد وصل بي الشغف لحد التعديل على ملفات نظام التشغيل "إكس بي" وأنتجت نسختين هجينتين منه، الأولى نسخة إسلامية، والثانية نسخة وردية للفتيات .

كان الحماس يملؤني وأنا أقوم بكل تلك الأمور غير القانونية، وبمجرد أن بدأ التساؤل ينتابني عن مدى فائدة ما أقوم به، إذا بي أجد أبي متذمرا بسبب أحد البرامج التي يستخدمها بكثرة، والذي كان يطالبه كلما فتحه بشراء نسخة مدفوعة للاستفادة من كافة مميزاته، فقمت بهندسة البرنامج عكسياً خلال يومين ومنحت والدي النسخة الكاملة والمهكرة من البرنامج.

وكتشجيع لي في المقابل، منحني مبلغاً مالياً واقتنى لي أقراصا فارغة كنت أنسخ عليها نسختيّ المعدلتين من نظامي التشغيل وأبيعهما لأصحاب المحلات .

كانت فلسفتي الخاصة أن العالم لديه آذان أيضاً، يصغي لأحدهم حين يصرخ، ولآخر حين يصمت، أما أنا فيستمع لنقرات أصابعي على لوحة المفاتيح.

لم تكن المشاكل بين والديّ تشغلني كثيرا في تلك الفترة، ولم أكن أنتبه لأغلبها أصلاً، فقد كان حنان البيت العائلي يملأ كل فراغ في داخلي; عمة، جدة، وعم كان يعاملني مثل صديق له .

أفتح ذراعيّ ممسكا بالبساط من جهة، يقابلني عمي ممسكاً إياه من الجهة الأخرى، نفرشه على الأرض ونضع معاً مجموعةً من الأدوات الإلكترونية، ملابس، أحذية مستعملة، خواتم فضية، وأخيراً قارورات من عطر المسك التي يمزجها ويصنعها عمي بنفسه. عطر المسك رائحة طفولتي.

كان عمي بسيطاً، يمارس الرياضة ويعيش بقوت يومه، شغوف بمتابعة الأفلام الوثائقية وأفلام الأكشن القديمة مثل "رامبو" و"بروس لي"، يشبك أصابعه بأصابعي ويأخذني إلى المسجد، وفي الطريق يبتسم للجميع .

عمي هذا لم يُملِ عليّ الأخلاق، ولا فلسفته البسيطة في الحياة، كان يصحبني معه فقط ويتركني أستخلص حكمته مثلما يستخلص عطوره من المسك الذي يبيعه لقد منحني عمي إحساس الرضا بالبساطة التي غابت عن أسرتي.

تعلمت أن الرجل يجب أن يثبت رجولته من خلال مواقفه، وأن تعمل رجولته ولطافته معاً بانسجام، هكذا فقط يمكنه أن يكسب قلوب الآخرين ويصبح محبوبا من قبلهم. تعلمت أن أعيش يومي وأصنع سعادتي فيه بنفسي، فآكل أكلاً طيباً، وألبس لباساً لائقاً، وأهتم بنظافتي ومظهري ورائحتي وحتى أظافري. تعلمت ألا أستغل حب الآخرين لي، وأن أحبهم بالمقابل، وأسأل عنهم وأطمئن على أحوالهم وأفيَ لهم. تعلمت أن السعادة

لم تكن يوماً مرتبطة بالمال، صحيحٌ أن المال يسهل الحصول على السعادة ويوفر أسبابها لنا، لكن كل واحد منا قادرٌ على صنع سعادةٍ بسيطةٍ لنفسه دون أن يتطلب ذلك مالاً .

أن تغير محل إقامتك.. هذا لا يعني أنك ستحظى بأثاث جديد وبيئة مغايرة لما ألفته فحسب، بل إن نظام العائلة سيتغير كذلك، إما للأحسن وإما العكس .

ما حصل معي أن والديّ جمعا أغراضنا وذهبنا جميعنا إلى منزلنا الجديد، منزل اقتناه أبي لنا وحدنا. قرارٌ جاء مفاجئا من طرفه، لم أتفاعل معه، وباركته فاطمة، حدث هذا آخر أيام العطلة الصيفية.

في ذلك الوقت كنت أفكر في أمر أكبر، فقد بدأ ينمو بداخلي شعور الأبوة !

كان أخي الأصغر يبلغ من العمر حينها سنتين فقط انتظرته قبل أن يولد، وأحببته حين وُلِد، لكن فاطمة لم تحبه في البداية لأنها كانت تنتظر بنتاً حسب ما فهمت وكثيراً ما سمعتها تقول في مجالس النسوة أن أخي "جاء غلطة ."

بدأت أدخر كامل المصروف الذي يمنحني إياه والدِي وأشتري به أشياء متنوعة لأخي، حتى لو كانت تافهة أو غير مهمة بالنسبة إليه، كانت رؤيته وهو يقلّب قلما أو قطعة حلوى بيديه الصغيرتين تبعث في داخلي شعوراً بالرضا، والسعادة، والأبوة. هكذا كانت علاقتي مع أخي، كمسؤولية أرسلها الله إلي لأعتني بها وبكل شؤونها.

لم أفهم سبب حدوث ذلك، لكننا لبثنا في المنزل الجديد عاماً واحداً فقط قبل أن يقرر أبي بأن علينا الرجوع إلى جحيم وادي سوف!، لم أصدق ذلك إلا حين وجدت نفسي على متن طائرةٍ متجهةٍ إلى هناك، وبقيت أفلسف سبب هذا القرار دون إجابة واضحة .

كان من الواضح أن العلاقة بين والديّ تتجه من سيء إلى أسوء، هذا ما ترجمه سكوت محمد وتفاديه لفاطمة وبكاؤها المستمر الذي دائما ما تصحبه سلسلة من "دعاوي الشر" عليّ أنا وعلى أبي وعائلته .

كرهت أبي أكثر لأنه لا زال يجعل أمي تبكي، أو هكذا فهمت حينها، وبدأت أكره أمي أيضا لأنها تدعو بالشر

على والدي وعائلته التي هي عائلتي أيضا، أنا الذي كبرت بين أحضانها .

ومثلما عودني أبي، كان يجتهد في إخراجي من دائرة المشاكل هذه; يصحبني معه إلى المسجد، إلى الأسواق وإلى كل مكان جديد علي، كما أنه ملأ وقت فراغي المسائي بتسجيلي في مركز لرياضة الكونغ فو .

هناك بدأ اتفاقٌ خفي بيني وبين أمي ضد والدي، وافقت عليه دون تفكير ودون طلب منها، جاءت كل الأحداث متتابعة، لأجد نفسي أمنحها مصروفي الذي كان يقدمه لي والدي لتصرفه هي كيفما شاءت، فأحيانا كان يمنحني مالاً لأزور الطبيب، وكانت تخبرني أسماء أدوية مسكنة أشتريها من الصيدلية بدل زيارته، وأمنحها المال المتبقي .

كانت أمي تجري الكثير من المكالمات الهاتفية التي لا سبب لها حتى مع عائلتها في فرنسا، وتقتني الكثير من الأشياء التي أدخلها أبي في خانة التبذير، وفهم أن مصدر المال الذي تصرفه بإسراف هو أنا، فبدأ مصروفي يقل .

انتهت السنة الأولى من تعليمي المتوسط بأذى نفسي لا يزال يلازمني، ليس فقط بسبب تعايشي مع كائنات غير مرئية بمنزلنا في وادي سوف وما فعلته لي ولوالدتي أمامي، أو بسبب فهمي المبكر لما يحدث بين والديّ، أو حتى لخيانتي الصغيرة لأبي، بل لأني شهدت محاولة انتحار أمي !

تشكك فاطمة في كل شيء وتطعن فيه، وتعتقد أنها تمسك زمام الأمور في أي موضوع، وأنه من واجب الآخرين -مهما كانت صفتهم- منحها الحرية المطلقة في التصرف كيفما تشاء وفي اتخاذ القرارات.. هذه الفلسفة الغريبة قادتها لما أطلقتُ عليه آنذاك "كفراً"، فكنت أجدها في العديد من المرات ناقمة تخاطب الرب بعبارات لا تليق بخطاب عبد مع خالقه، وكأنها تلومه أو تحاسبه لأنه وضعها في مواقف صعبة كالتي تعيشها، لم أكن أرى الموضوع من تلك الزاوية، فحتى لو وُجدت بين والديّ مشاكل، فهي لا تعدو أن تكون مجرد ابتلاء لا يستدعي كل ذلك السخط .

ومع تمردها ذاك على الأقدار، وجدتها يوماً في شرفة العمارة التي كنا نسكن فيها بالوادي وقد تدلى من سياجها الحديدي حبلٌ كان أبي قد اشتراه قبلاً لاستخدامه في تعليق أضحية العيد، أما هي فكانت تمسك بالعقدة الدائرية في الطرف الثاني من الحبل، واقفة على كرسيٍ بلاستيكيٍ وَوجهها مبتل بالدموع .

عندما رأيت ذلك المنظر انتابتني رعشة في جسدي، وأحسست بوخز شديد في قلبي وأغمي علي لأفيق وأنا مستلقٍ على فراشي مستندا إلى ثلاث وسادات، تنتابني برودة شديدة وشعور بالوهن، وألم في الجزء الأيسر من وجهي.. رأسي، عيني اليسرى، منخري الأيسر، والجهة اليسرى من أسناني وضروسي .

بدأ أبي يسألني عن سبب حدوث هذا معي، فأجابته فاطمة بسرعة أنها الحالة المعتادة التي تنتابني عند الدراسة فقط، وأنها تزامنت مع الزكام، قالت هذا وهي تنظر إليّ نظرةً فهمتُ من خلالها أنه عليّ أن أخون أبي مجدداً، وأصمت، وأكذب، وهو ما فعلته .

هذا اليوم كان أول عهد لي مع عدة نوبات مشابهة عانيت منها لاحقاً، لكن بتركيز أكبر..

الفصل الرابع

اقتلِعت مثل نبتةٍ صغيرة، ثم غرستُ بعيداً.. حين لاحظوا ذبولي أعادوني إلى أرضي، لكنهم أعادوني بعد أن امتلأَت جذوري بالسموم، لم أعد تلك النبتة الصغيرة، ولم أكتفِ بالذبول فقط .

يوسف الذي لم يعش طفولته سعيداً لن يعيش مراهقته سعيداً أيضاً.

عدت إلى الشلف مريضاً، مكتئباً، حاملاً القليل من الذكريات الجميلة التي عشتها رفقة أبي خارج المنزل، وبضع حركات كونغ فو، وقاموسٍ ضخم من الكلمات البذيئة ومكر المراهقين .

عند عودتنا، حاول أبي إخراجي مجددا من دائرة الصراع تلك، فكنت -بناء على طلبه- أذهب للمتوسطة صباحاً، ومن هناك إلى بيت جدتي وليس إلى منزلنا، ثم أعود للدراسة مساءً لأعود بعدها إليه .

هذه العقلية الجديدة قادتني إلى حزن جديد، حيث أنني بدأت أقارن مجددا بين البيتين، بيت جدتي ومن معها، وبيتنا ..

عند جدتي كنت أملك متسعا من الحرية بالنسبة لمراهق في مثل سني، كان بإمكاني أن أفتح الثلاجة، أو أن آكل قطعة خبز في غير وقت الإفطار والعشاء، أو أطلب أكلة ما، أو أصب لنفسي كأس ماء دون أن يشتمني أحد، أو أخرج للعب قرب المنزل، أو أشغل التلفاز على قناة

الرسوم المتحركة... وهي أشياء كان القيام بها محرما في قاموس والدتي.

كرهت فاطمة أكثر، لأني لم أجد تفسيرات مقنعة لحرماني من أمور بسيطة كفتح ثلاجة، ولم أفهم أيضاً لماذا يستدعي ذنب فتحها جزاءً كضربي وشتمي وشتم أبي وعائلتي كاملة، فكان أن بدأتُ سلسلةَ تمرداتٍ بسيطة مثل تغيبي عن الدراسة والسفر خمسين كيلومتراً لأرى البحر، أو لأجلس في مقهى، وقبل نهاية ذلك العام بأشهر قليلة استقبلت رئتاي أول جرعة من النيكوتين، وابتسمتا قليلاً.

بدأت شخصيتي تتغير، صرت متمرداً على كل شيء حتى ولو في داخلي، كنت أغطي وجهي كلما استطعت، ولهذا السبب أحببت فصل الشتاء، اشتريت مشغل موسيقى وملأته بموسيقى الراب مرتكبا بذلك ذنباً جديداً في أسرتنا المحافظة، لأنني أحسست أن ما يقوله هؤلاء المغنون يلائمني أكثر، هذا التمرد ترجمته حتى في تعاملي مع الكمبيوتر، وأصبحت أشعر بنشوة كلما قمت بعمل غير قانوني، وبدأت أخطط للقيام بأمور أكبر.

أما في المتوسطة فقد بقي مستواي على ما هو عليه، الشيء الوحيد الذي استجد هو نبوغي غير المعتاد في مادة اللغة العربية، وتعلمي السريع للانجليزية .

مضت كل الأيام متشابهة تقريباً، عدا حادثتي حب اجتنبتهما بنجاح..

الأولى أن طالبة في المتوسطة كانت تتعرض لي كثيراً، وترسل لي رسائل الغرام، وتطلب مني لقاءها خلف المتوسطة التي كنا ندرس بها، وقد كان تجاهلي لها سبباً لتيأس، وتبتعد عني أخيراً .

بعدها بأيام كانت الحادثة الأخرى، كانت تدرسنا في مادة الاجتماعيات امرأةٌ صغيرةٌ في السن، وقد كانت آنذاك حاملاً، أحبتني كثيراً لأنني تلميذ نجيب يحفظ كل التعاريف والأحداث والتواريخ، ويكتب كل الدروس على السبورة بخطه الجميل، في ذلك اليوم وفي حصتها، وضعت يدها على رأسي وقالت وهي تنظر لبقية الطلبة "ليتني أرزق بفتى جميل مثلك."

عند انتهاء الحصة طلبت مني الأستاذة ألا أغادر القِسم، وبعد خروج كل الطلبة استدعتني إلى مكتبها

وبدأت تمرر يدها على جسدي، بدءًا من رقبتي إلى صدري إلى أسفل قليلاً، وبخفة شديدة قامت بفك أزرار حجابها العلوية ورأيت للمرة الأولى ثدي امرأة من غير محارمي .

لم أحس بيدها التي أدخلتها في نفس الوقت داخل سروالي حتى استقرت هناك، نزعتُ يدها وبدأت أهددها "اتركيني وإلا أخبرتهم ."

منذ تلك اللحظة تحول حبها لي إلى كره، لم يمض إلا شهران بعد هذه الحادثة وانتهت السنة الدراسية، بعدها لم أر تلك الأستاذة مجدداً.

***

في السنة الرابعة من تعليمي المتوسط بدأت فاطمة عادةً جديدة، وهي أن تنام وتحت وسادتها خنجرٌ يشبه السيف في طوله، مهددة به والدِي دون أن ينبس ببنت شفة، وما كان منه إلا أن أصبح يمضي يومه كاملاً عند جدتي، ليأتي ليلاً ويبيت في غرفتي أنا وأخي، إما حماية لنا منها، أو خوفاً منها، لم أدر حينها.

ربما كانت فاطمة تتوقع ردة فعل أكبر من تجاهل محمد، لذلك قررت استفزازه من جديد، فكانت أحياناً تطبخ كل ما في المنزل بتبذير، مثل أن تضع الدجاج مع أنواع اللحم كلها على طاولة إفطار واحدة. وأحياناً أخرى كانت تحضر طعاماً سيئاً، وعند خروجه تطبخ لنا من جديد، وشيئاً فشيئاً أصبح الأكل السيء ذاك لنا وله أيضاً ولم تعد تطبخ ثانية من أجلنا أنا وأخي .

في الوقت نفسه، تحولت الضربات والصفعات من جسدي إلى جسد أخي الصغير، ونصبتني أمي "رجلاً" كمكافأة لي على شراكتي الخفية معها في بعض ما تفعله، هذا أغضبني أكثر وجعل حقدي الداخلي تجاهها يزيد فقد كنت مستعدا لأتلقى أي شيء سيء في العالم عوض أخي .

هذه الأفعال المفاجئة منها جمعتُها أنا في دفترِ شعر، ثم هربت به إلى غابة قريبة، إلى مكان أسميته "غيهب الوجع"، وتفاجأت لاحقاً وأنا أقرأ أحد الروايات أن كاتبها له مكان خاص أطلق عليه الإسم نفسه.

بكيتُ كثيراً في غيهب وجعي، ودخنت كثيراً، وتألمت رئتاي أكثر، وأخبرني السعال عدة مرات أن أتوقف. أحرقت ذلك الدفتر بولاعتي وعدت إلى المنزل دون أن أخفي رائحة السجائر مثلما تعودت .

كانت رائحتي ذلك المساء أشبه بمدخنة متحركة ضربتني فاطمة كثيراً، وشتمت كل شيء كعادتها، ليأتي أخي ويجلس في حجري دون أن يقول أي شيء وكأنه متضامن معي، أما أبي فلست أعلم إن كان قد علم بالموضوع أم لا، لأنه لم يتكلم عنه أبداً.

ما لم تفهمه والدتي، ولن تفهمه لاحقاً أيضاً، أنني في ذلك اليوم تعمدتُ أن تصل رائحة السجائر إليها، كنت أريد أن تعرف أن ابنها يدخن، وأن ما يفعله لها سببٌ فيه، فتهتدي وتصبح الأمور مثلما كانت، لكن الحقيقة أنها أصبحت أكثر سوءاً.

في الحقيقة، هي لم تكن تبالي إن كنت أدخن أو أهيم على وجهي، عندما أحقق نجاحاً فإنها تقول "ابن فاطمة" أو "تربية فاطمة"، أما في حالات كهذه فإنها تقول "كلب مثل باباه" أو "تربية محمد."

أحرزت المرتبة الثامنة في شهادة التعليم المتوسط على مستوى مقاطعتنا، وانتقلت إلى التعليم الثانوي، لم أسعد بهذا النجاح، كان يوماً عادياً آخر بالنسبة لي، يوم رؤية النتائج ذاك، أما هدية والدي فكانت أن بدأ يعلمني السياقة .

***

كبرَت موهبة الشعر لدي وأصبح لي عدة دفاتر، ودفترٌ خاصٌ أسميته "ديوان شمعة الذكريات". هذا الدفتر تناقلته كل فتيات الثانوية، وعدة أساتذة، وكان كلما رجع إلى محفظتي يرجع بعطر امرأة، أو رسالة حب داخله، أو وردة في إحدى صفحاته، أو آثار دموع على ورقة ما.

اخترت أن أدرس تخصصاً علمياً رغم نبوغي في الأدب، وكان هذا بناء على طلب والدي "الأدب ما يوكل خبز"، فكنت أحرز نقاطاً متفوقة في المواد الأدبية خاصة الانجليزية التي تعلمتها بنفسي أثناء رحلتي مع الكمبيوتر، أما المواد العلمية فكنت تقريبا لا أحرز المعدل المطلوب فيها، ربما بسبب ميولي الأدبية، وربما بسبب أني لم أعد تلميذاً نجيباً مثلما كنت، فقد كنت أتسكع كثيراً

رفقة صديق جديد أصبح صديقي الحميم بعدها، وأضعه في نفس درجة علي، صديق طفولتي القديم .

علي وعبد الحميد كانا ولا يزالان صديقيّ المقربين أخوي اللذين لم تنجبهما فاطمة، كانا معي دائماً، ويشهد التاريخ لهما بوقفات لا يمكن أن يقفها شخص آخر مع صديقه.

زار ثانويتنا ذات يوم نادٍ ثقافي يدعى آفاق، ولم يكن لي علم بنشاطاته، كل ما علمته أنه وفر للطلبة مكتبة متنقلة فزرتها وأخذت عدة كتب وروايات منها .

عندما حان موعد إرجاع الكتب استوقفتني عضو بالنادي هناك

– هل أنت يوسف؟ سمعت عنك من طالبات الثانوية وقد قرأت شمعة ذكرياتك!

– نعم أنا هو، شمعتي كتبتها لأحترق بها لاحقاً فلا تخبريني رأيك بها لأنه إن غيّر حرفاً فلن يغيّر قدراً.

– عميق مثلما وصفوك! أدعوك للمشاركة في نشاطات نادينا ولنبدأ مساء اليوم بأمسية أدبية في مدرج الثانوية.

ألقيت قصيدتين دون أن أرفع رأسي للجمهور، كانت تلك هي المرة الأولى التي أقابل فيها جمهوراً، نلتُ شهرةً محلية وكنية "يوسف الشاعر"، وتم تداول فيديو لي يظهرني أثناء الإلقاء.. كانوا يقولون إن كلماتي تعجبهم وأنني مشروع كاتبٍ متميز، وكنت أتألم لهذه الإطراءات، ليس لأنني متكبر، بل لأنني أكتب انطلاقا من واقع أعيشه، فكيف يعجبون بواقعي، وكيف يتخيلون أن شخصاً لم يعش ما عشته قادرٌ على كتابةٍ مثل كتابتي؟

في السنة الثانية من تعليمي الثانوي حدث معي ما يحدث مع كل مراهق في الكون.. أحببت !

كانت ياسمين فتاةً جميلةً إلى ذلك الحد الذي جعلها محط أنظار كل الطلبة في الثانوية، والعديد من الأساتذة والموظفين كذلك، وقد سرت إشاعة حينها أن أستاذ اللغة العربية قد تقدم لخطبتها ورفضته لصلعه .

كان مجرد الوقوف مع ياسمين والتحدث معها حلماً للكثيرين، لذلك عندما أخبرت صديقيّ أني أشعر بانجذاب ما نحوها فإنهما ضحكا عليّ كثيراً ونصحاني أن أجرب الحب مع فتاة غيرها.. أنا الذي كانت الفتيات

يتغزلن بي في كل زاوية، ويغمرنني برسائل الحب والغرام، ويتمنين لو أوافق على إحداهن أو أكتب فيها قصيدة .

بعد أن كنت أعيش حياتين، أصبحت أعيش ثلاثة.. حياتي مع أسرتي، ومع عائلتي، ومع الحب. أصبحتُ مشتتاً، لكن جلّ تركيزي انصب على حياتي الجديدة تلك أكتب عنها وأحاول فلسفتها عبثاً.

تشجعتُ أخيراً وأخبرت ياسمين أني أحتاجها في موضوع مهم عند الاستراحة، فابتسمت ووافقت وانصرفت، هكذا ببساطة .

عند الاستراحة توجهت نحوها، حضرت نفسي لأحكي لها كل شيء، عني وعن مشاعري تجاه أسرتي وما أعيشه معها.. لكنها قاطعت كل أفكاري تلك.

– أنت شاعر الثانوية، جميل، لطيف، ومثقف، لكن هذا لا يكفي، عليك أن تكون شجاعاً كفاية لتواجهني وتنظر في عيني وتطلبني مباشرة.

وانصرفت ياسمين..

شجاع؟ وهل يحتاج الحب لشجاعةٍ وسؤال؟ منذ متى كان الحب سؤالاً بنعم أو لا، الحب شعورٌ فطريٌ تغذيه حاجة المرأة للرجل، والرجل للمرأة، فتتدخل يد القدر لترمي شخصين عشوائيين في متاهة وتتركهما يبحثان عن بعضهما حتى تتحد ذواتهما معاً ويقسمان على الوفاء.

ألا تعرفين هذا يا تُرى، أم أنك تضعينني أمام امتحان صعب; امتحان الشجاعة، لتري إن كنت أستحقك حقاً أم أن ما أشعر به تجاهك مجرد نزوة عابرة؟

مكثتُ أسبوعين أفكر في كلمات ياسمين المختصرة تلك وطريقة كلامها، وأخيراً قررتُ أن عليّ اجتياز امتحان الشجاعة هذا ما دمت قد وصلت إلى هذه المرحلة، فقد كان مجرد وقوفي معها وابتسامها معي وهي تتكلم موضوعاً دسماً لكامل الثانوية .

في حصة الفيزياء كتبت ..

– ياسمين، أشعر أن كل محاولاتي وخططي وأفكاري تقود إليك في النهاية، فهل لي أن ألتقيك مجدداً.

أخفيتُ رسالتي داخل دفتر أرسلته إليها حيث كانت تجلس استدارت لي وابتسمت ابتسامةً خفيفةً ثم رأيتها تكتب وترجع لي دفتري..

– نختلي هنا بعد الحصة.

– نختلي؟ لماذا هذه اللفظة بالتحديد، الخلوة بك محرمة في قاموسي، أنا لا أريد أن أختلي بك، أريد أن تتحد روحي مع روحك، وتصبح مشاكلنا وأفراحنا مشتركة.

انتهت الحصة وخرج الجميع وأنا متسمر في مكاني لا أعرف أي مأزق ورطت نفسي فيه، وشعرت بندم طفيف على نزوة الحب هذه .

ذهبت ياسمين إلى آخر الصف، وبمجرد أن استدرت لها أشارت إليّ بأصبعها لآتي. وصلت إليها أخيراً، لكنها لم تدع لي فرصة للكلام بل سحبتني برفق وبدفعة واحدة من يدها على صدري لأتكأ على الحائط، وفي لحظة واحدة قبلتني بقوة في فمي، وسرت فيّ رعشة لم أحس مثلها من قبل .

أمسكتُ يدي ياسمين ونظرت في عينيها مطولاً، هذه المرة كنت أنظر فيهما دون خجل..

– ما أحس به تجاهكِ لا تلخصه قبلة ولا عناق، بل هو أبعد من ذلك، أحس أنك المرأة الوحيدة القادرة على احتواء ما أعانيه وسأكون مقابل هذا بجانبك دائماً.

ضحكَت ياسمين عليّ مطولاً، ومع ضحكتها الطويلة تلك أحسست بالذنب لأني تركت شعور الحب يتسرب داخلي دون أن يحتكم عقلي مع قلبي .

– بالنسبة لمشاكلك نتا لازم عليك تروح تشوف طبيب نفساني راك معقد.

يالعبث الأقدار بي! تخيل أن تُقبلك فتاة أحببتها من الوهلة الأولى ثم تنصحك بزيارة طبيب نفسي وتصفك بالمعقد في اليوم نفسه واللحظة نفسها.

لقد كانت ياسمين درساً مفيداً جداً بالنسبة إليّ تعلمتُ حينها أن أغلق على قلبي داخل قفص، وأرمي المفتاح بعيداً عن أحلامي، وألا أسمح له بالخروج مهما حامت الفتيات حوله ورمين له فتات الخبز وهو داخل قفصه. تعلمت أن الحب شعور أسمى من الاتصال الجسدي، وأن من يتصل جسدياً بفتاة دون أن يحبها شأنه شأن الحيوان. تعلمت أنه لا يكفي أن نحب، بل يجب

علينا أن نفهم، ونتعاون، ونتحد، ويساعد أحدنا الآخر. تعلمت أن في العالم أناساً يبحثون عن علاقاتٍ عابرةٍ لملء فراغٍ ما في حياتهم وأنه عليّ ألا أكون مثلهم.

ورغم هذه الضربة الموجعة، ظلت حاجتي لوجود امرأة في حياتي قائمة، وأصبح لديّ ميلٌ لتقديس أجساد النساء، كما وصلتني عدة طلبات جديدة من نسوة رفضتها كلها .

أعدتُ السنة الثانية من تعليمي الثانوي كنتيجةٍ حتميةٍ لكل تلك الحوادث المؤلمة التي حصلت معي، ونجحتُ في المرة الثانية لأنتقل إلى السنة الثالثة والأخيرة، عام البكالوريا; أهم سنة في حياة كل تلميذ.

الفصل الخامس

لقد كان العالم عابساً في وجهي الصغير، عابساً كفايةً لأتنفس الهواء الذي يخنقهم، لأدغدغ رئتيّ بالنيكوتين، وأعيش العالم برئتين مبتسمتين من أثره .

وصفتني أمي بالرجل الذي يحمي المنزل، فوقف والدي عند منزلنا يغيّر مفتاحه..

بسكينٍ صغير قررتُ فتح الباب، بسكينٍ صغير قسما جسدي إلى نصفين..

تركتُ نصفي الذي يحتوي سعادتي لأمي، ونصفي الذي يحتوي نجاحي لأبي..

تصفعني فاطمة حين تقرأ اشتياق عيني اليسرى لليمنى، وأصفع محمد لأنه تركني بعين واحدة..

على الرصيف كنت أرى الجميع يسير نحو بيته لينام بقدمين، وأنا بقدمٍ واحدةٍ نائمٌ على رصيف..

الشيء الوحيد الذي بقي ثابتاً هو رئتاي، ملأتهما بالنيكوتين واندمجت مع حدّ الليل نصفاً يسير في الشارع بلا سعادة، بلا نجاح.

كانت فاطمة في صائفة سنتي الأخيرة قبل البكالوريا لا تزال على عادتها القديمة، تشحن رصيد هاتفها كثيراً وبشكل مستمر، وكنت أسمع بعض ما تقوله، كلمات جديدة مثل "طلاق."

في أحد الأيام رأتني عند باب غرفتها أتنصت على ما تقوله عبر هاتفها، أخبرتني أنها ترغب في الطلاق، وأنها تجري اتصالات مع أقربائها في فرنسا لمساعدتها مادياً فسألتني إن كنت سأظل أراها أماً لي لو حدث وتطلقت يوماً، وأومأتُ لها برأسي موافقاً .

لم أخبر أبي وقتها، خنته خيانة أخرى صغيرة، أردته أن يسمع تلك الكلمة منها هي وليس أنا، وفعلاً جاء اليوم الموعود ووصلَتْ إلى منزلنا ورقة للحضور إلى المحكمة باسم والدي.

بدأتْ فاطمة حينها سلسلة خرجات من المنزل دون إخبار والدي.. إلى المحامي، إلى بيت أهلها، وفي عدة مرات إلى الشارع تبحث عن محل.

نعم، لقد اتفقت مع أقربائها على أن تفتح محلاً تعيل به نفسها بعد الطلاق.

سمعتُ أبي عدة مرات يقول أن أمي امرأةٌ عصت زوجها ونشزت عن أمره، لأنها تخرج من بيتنا دون إخباره رغم أنها لا تزال زوجته وتحت عصمته .

صديقاي كانا على علمٍ بكل تفصيلة في حياتي، وكانا دائما يخبراني أنه لو حدث وتطلق والداي، فإنه علي اختيار المكوث مع أبي لأضمن مستقبلي من جهة، ولأترك إمكانيةً لعودة والدتي من جهة ثانية، فهي كما قالا لي آنذاك لن تتمكن من تدبير أمورها بنفسها، وإن وجدت نفسها وحدها فستعود حتماً.

حضرنا جلسةَ الصلح الأولى، والتي تمسك فيها أبي بنا، وأصرت أمي على طلب الخلع. في نفس الوقت كانت فاطمة تحضر لمحلها الجديد بعد أن وصلها دعم مادي من وراء البحار، من أقربائها بفرنسا .

سار كل شيء عكس ما أردتُه، دبرتُ لها محلاً في مكان عام وبسعر ملائم، لكنها رفضت رأيي واكترت محلاً آخر لم يعجبني لا هو ولا مالكه. ثم دبرتُ لها لوازم تحضير الحلويات التقليدية والعصرية لترفض اقتراحي من جديد وتشتريها من جهة أخرى بثمن غال، وقد كانت تلك اللوازم مهترئة تقريباً .

شعرتُ بالضآلة الشديدة إزاء هذا الرفض المستمر لكل ما أقترحه، فأنا موقن تماماً أن رأيي هو الصواب

لكنها ترفض الاستماع لي، ورغم هذا فقد اخترت البقاء معها لسببين: الأول أنها امرأة لا يجوز تركها وحدها في مواجهة عالمٍ لا يحترم طلاق امرأة، والثاني أن أخي باقٍ معها بقوة القانون وليس بإمكاني أن أتركه وحده هكذا.

كانت والدتي تدير المحل نهاراً وتتسبب كل يوم في خسارتنا، من إهداء الحلويات للزوار دون سبب، إلى الأكل منها بهمجية وفي كل حين، فكان مجموع ما نجنيه لا يغطي ما أنفقته هي، لتعود إلى المنزل رفقة أخي وأبقى أنا في المحل حتى الليل، فأغلقه وأعود.

أما خلال النهار فكنت أمشي كثيراً، أو أركب الحافلات العمومية لعدة أماكن أعرض حلوياتنا على أصحاب المحلات لعلهم يقبلون أن نصبح ممونين لهم وفعلاً حصلتُ على عدة شركاء جدد أصبحت أوصل لهم طلبياتهم بنفسي، تعبت كثيراً من ثقل الحلويات والمشي الكثير، ومع شراهة تدخيني بدأت رئتاي تبتسمان أكثر.. وأكثر.

في أحد الأيام، وبعد دقائق من رجوع والدتي إلى المنزل واستلامي للمحل اتصلت بي وأخبرتني أن أبي غير أقفال المنزل.

أغلقتُ المحل مباشرة واتصلت بصديق لي يعمل نجاراً، أخبرته أننا أقفلنا باب المنزل والمفتاح بالداخل وأن علينا تغيير الأقفال فوراً، ولإضفاء بعض المصداقية على روايتي أخبرته أن أمي وأخي عند باب المنزل ينتظران .

فور وصولي رفقة النجار وبدأه العمل على كسر الأقفال فاجئنا أبي بظهوره.

– يوسف، لا تقحم نفسك، احمل أخاك واذهب لبيت جدتك.

– لا يا أبي، هذه أمي وهذا منزلي ولن أترك أيا منهما..

لم يسبق لي أن كرهت والدي مثل ذلك اليوم، فكيف يسمح لنا بالمبيت خارج المنزل هكذا؟ أخبرني أنه لا دخل لنا في ما قام به، وأنه يمكننا المبيت عند جدتي والانتقال للعيش معها بشكل دائم، أنا وأخي.. فقط. انصرف النجار خائفاً من هذا المشهد، أما أنا فوضعت يديّ على

صدر أبي وأحكمت قبضتي على قميصه والدموع تملأ وجهي، حينها صفعني صفعة دفنت معها كل حب لي تجاهه .

رفضت الشرطة مساعدتنا، ورفض أخوالي وَوالدا أمي أن نبيت عندهم ونبذوها لأنها بنظرهم تركت منزلاً لا ينقصه أي شيء واختارت أن تتشرد وتخرج للشارع فكان الحل الوحيد أن يبيت أخي وأمي داخل المحل وأقفل أنا عليهما من الخارج وأبيت في العراء.

كنت دائماً ما أبتسم لأخي قبل أن أغلق عليهما وأخبرهما أني أبيت عند أحد أصدقائي، لكن الحقيقة أني لبثت عند صديقي عبد الحميد مدة أسبوعين فقط، بعدها شعرت أني غير مرتاح، وأني لم أعد ضيفاً مرحباً به خاصة مع صغر سني آنذاك، فلم يكن معظم الآباء ليقبل أن يبيت ولد في الخامسة عشر من عمره عندهم لمدة طويلة كهذه، لأتوجه بعدها إلى علي وأمكث لديه ليلتين ولأنه من عائلة فقيرة فقد أحسست أني عبئ عليهم، فلم أجد غير الشارع يحتضنني .

***

رئتاي تبتسمان للموت قريباً ..

أحرقني البشر في الحياة فعجزت أمامهم واكتفيت بحرق رئتي. هذا العالم لا يعترف إلا بآية "ولا تقل لهما أف".. كيف يمكنني أن أشرح له إذن ما يحدث معي؟ هل ستكفي بضع أسطر لذلك يا ترى؟ لا، سيجعلون مني شاذاً عن القاعدة العامة، وهي أن كل ابن يجب أن يبر والديه ويبقى معهما ويعتني بشؤونهما، حتى لو كانا يقتلانه كمداً كل يوم.

أتذكر يوم طلاقكما يا أمي، أتذكر كل شيء، وأتذكر كيف تخلى العالم كله عنك في لحظة واحدة.. ماذا عنك؟ هل كنت تذكرين كيف توقفت عن دراستي في نفس اليوم، ودبرت لك محلاً تبيتين فيه، لأغلق عليك وأبيت على الرصيف خارجاً أحرسك عندما أطلقت علي عيارك الشهير "كلب كيما باباه"؟ هل كنت تذكرين تلك التفاصيل الدقيقة عندما قلتها يا أمي!

"هذاك ماشي وليدي، هذاك ابن عاق يكمي الدخان".. أنا لم أتعاطى السجائر فقط يا أبي، فعلت أكثر من ذلك، كانت سجائري محشوة دائماً، لكنها الوحيدة

التي كانت تؤنسني عندما كنت أتوسد قميصي ليلاً على حافة رصيف، لتأتي أنت عند منتصف الليل بسيارتك وتنزل، وتبصق على وجهي، وتمضي.

لم أجد حينها عكازاً أتكأ عليه، أو صدراً أهرب إليه لم أجد إلا تلك السيجارة المحشوة.. هل أنا حقاً ولد عاق يا أبي؟ هل كنت تعلم أنها كانت هي و"حبة قلب اللوز" إفطاري الوحيد آنذاك؟ نعم آنذاك، يوم حملتنا خارج منزلنا دون عودة، وتركتني وأمي وأخي أمام عالم لا يعترف ببراءة الطفولة، ولا حرمة النساء.. ألا تزال تظنني ولداً عاقاً يا أبي!

هل شخصان سيئان مثلكما جُمعا في مكان واحد ثم افترقا بعد أن أحضراني وأخي للحياة، يستحقان أن أبجلهما وأعبدهما إرضاء لمجتمع لم يمنحني يوماً رغيف خبز في أشد لحظاتي جوعاً؟

***

لقد تركتك يا أبي، ووعدت أمي أن أعوضها عن كل ما فاتها معك.. كانت أحلامي وردية جداً، لكني كنت مثابراً. كتبت نثراً وشعراً ومارست التجارة وحصلت

على وظيفة حكومية أخيراً.. لكني لست بخير يا أبي، لأن أمي أيضاً شريرة مثلك، الفرق الوحيد بينكما هو تركيبتكما الجسدية وكفى.

أتساءل كيف هو شعورك يا أمي عندما أدفع إيجار سكننا، وأعتني بما ينقص بيتنا بكل جهد، لتبقى لي بضعة آلاف من الدنانير تستنفدينها مني عنوة، لأجد نفسي أستدين كي أصل إلى مكان عملي.

أتساءل يا أمي كيف أحسست في شهر رمضان الفائت وأنت تضعين أمامي طبقاً وحيداً يتيماً به "شربة فريك".. ثلاثين مرة، كل يوم، رغم أني أقتني ما يلزم، وأمنحك مالاً إضافياً فوق ذلك. تضعين في غرفتي إعلاناً لقطيعةٍ دائمة من بنودها أن تتشاركي وابنك الأصغر طاولة، وأتشارك أنا ودموعي وأرضية غرفتي طبق شربة.

***

أنتما ذكيان جداً يا والدي، لقد خططتما لقصة فشلي بكل دقة، بدءا بدراستي التي ضاعت بسببكما، وجسدي الذي تهالك وهزل بسببكما، ومستقبلي الذي ذهب بعيداً بسببكما، والدنانير الجزائرية القليلة التي أعيل نفسي بها

والتي نهشتما أغلبها.. أنتما. أعترف لكما بذكاء الخطة ونجاحها، وها أنا اليوم، شاب فاشل ينتظر موته، شاب تعطلت كل أحلامه في الاستقرار والزواج وشراء سيارة وتذوق ما لم يذقه من أكل قبلاً.

أنا اليوم فاشل أترجى السيجارة أن تقتلني حتى لا يعد موتي انتحاراً أحاسب عليه، وألعن كل سيجارة لا تجلب لي معها سعالاً حاداً ولحظات من البكاء والشهيق.

أستنشق كل ما أمكن لي من دخانها وسمومها وفي يدي هاتف أكتب به كلمات أعلم أن المجتمع سيرجمني بها، ويكوّرها حتى أكون أنا سبب كل خطأ حدث في العالم، ويكون والداي شخصين بريئين ابتليا بابن عاق مثلي.

أنا أعلم أن في دور العجزة غرفاً تأوي الآباء والأمهات الذين كانوا ضحية أبنائهم.. فهل في تلك الدور يا ترى غرف أخرى للأبناء الذين كانوا ضحية أوليائهم؟

أمي وأبي العزيزين، هل تسمحان لي بعد كل ما سبق أن أكون عاقاً لبضع لحظات فقط، وأقول، ليس لكما وحدكما، بل للعالم كله، أف..

***

هكذا كنت أكتب خواطري ليلاً على الورقة الزرقاء في آخر "الماصة"، بيدين مرتجفتين، وعينين دامعتين ورئتين مبتسمتين من أثر المفعول.

عندما يحتضنك الشارع، فإنك تنتقل تلقائيا إلى حياة مختلفة، وتمارس أسلوبا جديدا للعيش، وتغيّر عدة عادات فيك.

تزامن وجودي في الشارع مع حلول شهر رمضان كنت أقضي اليوم في توصيل طلبيات أصحاب المحلات ثم أعود مساءً إلى المحل لأنام ساعة أو اثنتين، وأنهض بعدها لأجهز طاولة كبيرة عند مدخل المحل، أضع عليها مختلف الحلويات الرمضانية.

عند وقت الإفطار يأتي عبد الحميد حاملاً طبقاً رمضانياً كاملاً لأمي وأخي، أما أنا فلم آكل منه يوماً بسبب لهفة أخي على الطعام المنزلي الذي افتقده، وجوع

أمي، ومع كل الخسائر التي كان يتكبدها المحل بسبب سوء تسييرها، كنت آخذ حبة وحيدة من قلب اللوز قبل أذان المغرب بدقائق وأغلق المحل وهما بداخله، لأجلس أنا في زاوية ما أنتظر أذان المغرب وأفطر بها.

أما بقية السهرة الرمضانية فكنت أقضيها في التسكع وحيداً رفقة سجائري التي أصبح نيكوتينها يؤلم جسدي النحيف، أبقى على حالتي تلك حتى موعد السحور فأدخل مسجداً ما أقضي حاجتي، وأشرب ما أستطيع تحمله من ماء الخزان أو الحنفية، وأصلي أحيانا إن لم يكن ينتابني التعب الشديد، وأخرج لأختار رصيفاً أنام عليه .

كان لزاماً علي حماية نفسي، لذا كنت أحمل معي خنجراً صغيراً على الدوام، أما عن وضعية نومي فقد كنت أنزع قميصي وأتوسده، وأستلقي بطول الرصيف، وأضم رجلي مع بعضهما، وأضع يدي اليسرى على خنجري وأنام.

نومي دائما ما كان متقطعا، فأحيانا يوقظني خط من النمل يعتلي وجهي، أو كلب ينبح بقربي، أو مارة ذاهبون لأداء الصلاة، أو والدي الذي كنت أتهرب منه، فلم

يلتقني إلا مرتين. وفي أحيان أخرى يدركني الصباح وأنا لا أزال نائما من شدة التعب، فلا يوقظني غير ضجيج الباعة المتجولين، أو ضحك الفتيات على حالتي تلك، لأن مظهري لم يكن يوحي أنني مجنون، كما أنني كنت أحافظ على نظافتي الشخصية رغم اتساخي الدائم .

تعلمت حينها أن البشر منافقون، وأن الله عندما يحاسبنا لن ينظر فقط إلى عدد الركعات التي نركعها لمجرد أنها فرضت، بل سينظر إلى باقي أعمالنا أيضاً.

كان بداخلي يقين أن الله لن يقبل صلاة أولئك المتجهين للمسجد وهم يضحكون علي، أو يشيرون إلي باستهزاء، ولن يقبل صيام أولئك الذين ألفوا وجودي في الحي، ويعلمون أني لا أفطر مثلهم، ولا يرمون لي حتى بخبزة أو كأس ماء .

تعرفتُ على بائع مخدرات، كان يمر بي أحيانا ويمنحني سجائر، أو شيئا آكله، وشيئاً فشيئاً بدأتْ سجائري تصبح محشوة بالمخدرات. أنا لا أعتبر أنه كان السبب في إدماني لها، فما كان يمنعني عنها هو المال فقط وهو أزاح تلك العقبة. بل أعتبره شخصاً فيه بعضٌ من

صفات الرجولة، لأنه على الأقل لم يكن مثل إمام مسجد الحي.

كان الإمام يمر من أمام محلنا يومياً، يقتني علبة حلويات، ويمضي، وكنت ألتقيه كثيراً لأن وقت مجيئه كان يتزامن مع وقت عودتي من مهمة التوصيل، بعد صلاة العصر .

لم أرتح لهذا الشخص الذي يعمل إماما، لكن فاطمة كانت توقره كثيرا، وتحترمه، وتحكي له كل ما حدث ويحدث معنا، وهو بالمقابل كان يستمع بصمت وابتسامة .

ذات يوم عرض عليها أن يمنحها مسكنا قديما له دون مقابل.. مقابل مادي أقصد، وقد استقيت هذه الحكاية من توتر أمي أمامي بعد عودتها من مشوارها مع هذا الدنيئ لمعاينة المسكن، والذي اختارت أن تراه دون أن أكون معها، ودون أن تخبرني أصلا بذهابها .

وكان التصرف الطبيعي من شاب في الخامسة عشر من عمره يشعر بخدش في شرفه أن انتظرته ليفرغ من الصلاة، ويخرج من المسجد، لأشتبك معه وأضربه كما لم أضرب أحداً من قبل، وكان التصرف الطبيعي من

المصلين الخارجين والمارة عندما يشاهدون مراهقاً يضرب إماماً أن اتهمت أنا بقلة التربية وضُرِبت من طرفهم ربما أكثر مما ضربت أنا ذاك "الإمام."

من المضحكات المبكيات أن شابا كان يدرس معي طيلة تعليمي المتوسط، وهو من عائلة ثرية جدا، رآني ليلاً على ضوء سيارته الفارهة، فتوقف ثم نزل إلي وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث، وأنا أحدثه عن كل ما جرى معي، وكيف وصلتُ إلى حالتي هذه. تأفف كثيراً، ورسم ملامح الحزن، ثم فتح باب سيارته ووضع بجانبي بطيخة، ومضى دون رجعة .

إن العالم الذي تعرفه أنت مختلفٌ تماماً عندما تجوبه ليلاً..

في الليل تلتقي أناساً لا يمكنك أن تلتقيهم نهاراً..

التقيتُ هاربين من العدالة، وبائعي مخدرات، ونسوة هاربات من منازلهن، وعاهرات.. كلهن تقاسمن معي مرارة الحياة وبؤسها، وكثيرا ما كنا نتعانق ليلاً على حافة رصيف، ليس عن شهوة، بل لندفأ أنفسنا، وقلوبنا وليشعر كل منا أن هناك شخصا بجانبه يفهمه، ويحس به.

ذات مرة التقيت فتاة ليلٍ طردها من استئجرها لتلك الليلة لأنها حسب ما قالت لم ترض أن تمارس معه ميوله السادية تجاهها، ولأنها تقيم بولاية أخرى فقد وجدت نفسها في الشارع فجأة، ووجدتني أمامها فاطمأنت لصغر سني وجلست بجانبي تحاول إغوائي لتضمن مضي ما تبقى من ليلتها بسلام .

بعد عدة محاولات فاشلة اطمأنت بأني مجرد صعلوك صغير يحمل سيجارة محشوة ولا شأن له بها، هكذا أخبرتني لاحقاً، وظنت أن دوخة المخدر قد أصابتني فبدأت تحكي قصتها من البداية.

حكت لي كيف كانت تحب شخصا، وكيف أنه كسر شرفها في فندق ما، وانسحب من حياتها، وكيف أن الحادثة بلغت مسامع والدها، وكيف خيرها بين أن يقتلها بيديه، أو يقتلها الشارع، فاختارت الموت البطيء خارجاً .

حكيتُ لها أنا أيضاً بعض جوانب حياتي وكيف وصلت إلى هذا الموصل، وشرعت أنصحها وألقنها ما علمتني إياه الحياة تقاسمنا السجائر، واحتضنتني، ونمنا على تلك الحال .

التقيتها مجدداً بعد أعوام عدة وقد تغيرت أحوالها قالت إنني كنت سببا في توقفها عن الدعارة، وأنها لا تزال تحفظ كل كلمة قلتها، وأنها اليوم تعمل في مصنع للزجاج، وأنها اكترت منزلاً لها تعيش فيه وحدها ومضت.

فشل مشروع فاطمة بعد بضعة أشهر فقط من بدايته ورغم كل محاولاتي البائسة في تحقيق أرباح من التعامل مع محلات أخرى إلا أننا وصلنا إلى مرحلة لم نتمكن فيها حتى من شراء المواد الأولية لصناعة الحلويات، فكان أن باعت فاطمة كل ما في المحل بسعر رخيص جدا ودون مشاورتي، واكترت سكنا دون مشاورتي أيضا، لأجد نفسي في مسكن يجب أن ندفع للبقاء فيه ونحن دون عمل.. وبدأ عامي الأخير في الثانوية، عام البكالوريا.

درست في ثانويتي المعتادة بضعة أسابيع، لكنني لم أتحمل سخرية الجميع مني هناك، لأنهم كانوا يعرفونني انطلاقا من شهرتي بكتابة الشعر. سخر مني الأساتذة والمؤطرون والطلبة، وصفوني بالمتشرد والعاق والمعقد وكل ما هو دنيء، ضربت أحد الطلبة بكرسي وتم تحويلي

إلى ثانوية أخرى تبعد خمساً وعشرين كيلومترا عن محل إقامتنا، ولبثت هناك شهرين قبل أن يكتشفني مؤطرٌ هناك كان صديقاً لوالدي، فانتقلت إلى ثانوية أخرى من جديد مبتعداً عن كل ذكرى تربطني بعائلتنا، كنت أبحث عن ضماد لجرحي في الغربة، والوحدة .

لم يدم بقائي في الثانوية الأخيرة إلا بضعة أيام، قبل أن تواجهني والدتي بحقيقة أن ما معنا من مال قد نفذ، وأنا لم أجد عملاً مسائياً بعد، فتوقفت عن الدراسة مرغماً وبدأت أعمل عند موثق عمومي .

تعرف الموثق علي، وعلم بوضعي، فكان أن عرض علي راتبا قليلا جدا قبلته مكرها. أجبرني ذاك الراتب على التوجه لمكان عملي مشياً، والرجوع مشياً أيضاً، ولم أكن أستهلك أكثر من ثلاث سجائر وحبة "معقودة" كل يوم فهزل جسدي أكثر وأصبح وجهي شاحباً، واتسعت ابتسامة رئتي.

انبهر جميع الزبائن بموهبتي في الكمبيوتر، وتحريري لكل أنواع العقود في ظرف وجيز، فكان أن سلمني

المالك مفاتيح المحل، أفتحه وأسيره في غياب صاحبه الذي اكتشفت لاحقا أنه زير نساء رغم أن له زوجتين.

ذات يوم أتت إلى المحل فتاة سألتني إن كان الموثق يحتاج عاملة، همست لها باكتشافي أنه زير نساء، وأن لها الحرية في الدخول إلى مكتبه أو الخروج، فدخلت.. فهمت حينها أن الحاجة غالباً ما تقودنا إلى المصائب.

نظر إليها الموثق نظرة متفحصة وقبل أن يمنحها الموافقة للعمل عنده، أجلسها بجانبي وطلب مني أن أعلمها وأجعل منها مساعدتي، ثم دعاني إلى مكتبه وأخبرني أن أجعل منها أكثر من مساعدة، أن أجعلها خادمة، وابتسم بمكر، وأومأت له بالإيجاب، لأن الحياة علمتني أن علي مسايرة التيار إن لم أكن قادرا على مجابهته.

كان اسمها فاطمة أيضاً، أخبرتني عن حالتها، عن أمها المريضة بمرض مزمن، عن أبيها السكير، عن أخيها غير المبالي بكل ما يحدث رغم كبر سنه، وأخبرتها أيضا عن مشاكلي، وبكينا معا، وأصبحنا صديقين متعاونين .

مضى أقل من أسبوع قبل أن يصارحها برغبته في مطارحتها الغرام، ولأنها رفضت كان راتبها مائتا دينار

جزائري، أو ما يقرب دولاراً واحداً تقريباً، وهو مبلغ غير كافٍ لأي عامل في الكون .

بدأتُ حينها أفكر أن علي استغلال ما يحدث حولي هناك، فكنت كلما غاب صاحب المحل أقدم خدمات إضافية، أو أنجز خدمات يطول إنجازها في ظرف وجيز، وآخذ فوائدها لنفسي .

على هذه الحالة تغير وضعي قليلاً، صرت آتي للعمل بالمواصلات، وأفطر إفطاراً عادياً كباقي البشر، بل وصرت أحضر سندويتشات لفاطمة كل يوم، كما كنت أمنحها مبالغ مالية مما آخذه لتعيل نفسها وتشتري أدوية أمها المريضة .

صار الموثق معروفاً باحترافية خدماته، وهذا طبعاً بسببي، فأصابه ما يشبه جنون العظمة وأصبح متسلطاً معي، بدأ يحضر لي ابنه الصغير من حين لآخر لأعلمه ما أجيد من تقنيات الكمبيوتر، ثم بدأ يطالبني بشراء ما ينقص المحل من ورق وحبر من مرتبي الشخصي، فكان أن غادرت العمل دون إعلامه أصلاً وفي حوزتي مالٌ كافٍ لأعيش عدة أشهر.

أما عن أحوال دراستي، فقد كان موعد عملي ينتهي في الخامسة مساء، وهو نفس موعد خروج الطلبة من الثانوية. كان أحد زملائي السابقين يأتيني كل مساء إلى مقهى نلتقي فيه، فيدرسني ما تعلمه اليوم حسب ما فهمه، كما كنت أرسل معه شهادات طبية تثبت أني مريض، حتى أضمن لنفسي مكاناً في امتحانات البكالوريا.

بقيت على تلك الحال بضعة أيام قبل أن أتعرف على شخص أخبرني عن نيته في فتح مقهى إنترنت، وحاجته لشخص يديره باحترافية، وعرضت عليه أن نكون شريكين في العمل. اشترينا بمدخراتي ستة حواسيب وتكفل هو بتجهيز المحل وباقي لوازمه، وبدأت في عملي الجديد كمالك مقهى إنترنت.

في تلك المرحلة كانت أسرتي الصغيرة لا تزال دون أي أثاث في المنزل، وكانا يفترشان الأرض لينام، فعزمت على تأثيث منزلنا وتجهيزه بكل ما يلزم أمي وأخي ليعيشا بسعادة .

هكذا بدأت أصرف ما يلزم حاجتي القصوى فقط علبة سجائر، فنجانان من القهوة، وسندويتشان. أما عن اللباس فكنت ألبس ما منحني إياه عبد الحميد أيام مبيتي في الشارع، أو لباسي الكلاسيكي الذي خرجت به من منزلنا في البداية .

كونت عدة معارف في المحل، ومن بين من عرفت شخص يستورد الملابس من فرنسا، فكنت أقتني لأخي ملابس جديدة من عنده دون أن أبالي بثمنها. أيضاً، كنت أبيت في المحل ولا أزور المنزل إلا نادراً، حيث خصصت لنفسي غرفة صغيرة أبيت فيها عند إغلاق المحل، وهذا لأني كنت أغلقه في الثالثة صباحا، وهو وقت غير مناسب لأعود فيه للمنزل، فكانت والدتي تأتيني من حين لآخر أمنحها مصروفا للبيت، وحقوق إيجار المسكن، ومبالغ متفاوتة لتشتري لنفسها ما تحتاج من ملابس، وكلما أتت كنت أملأ لها قفة من مختلف الحاجيات من عند محل يبيع المواد الغذائية مقابل محلي.

كنت ألاحظ أنها كانت تهتم كثيراً بما أجنيه هنا، وأنها كانت تتفحص زوار المقهى وتحصي عددهم، وأنها كانت

تغافلني وتأخذ مبالغ ضخمة من الدرج الذي أضع فيه المال، وحين واجهتها بذلك أخبرتني أنها تخطط لشراء عدة تجهيزات كهرومنزلية معاً حتى تحصل عليها بثمن مخفض، فباركت لها هذا القرار الحكيم بسذاجة وصارت تأخذ ما تيسر لها أمامي دون أن أعترض أو أقلق .

ذات يوم أتى صديقي كالعادة ليدرسني وأخبرني أن علي الذهاب للثانوية غدا وجلب ورقة الاستدعاء الخاصة بي للبكالوريا، وعندما ذهبت أخبرني المؤطر هناك أن والدي قد جاء البارحة وأخذها عنّي .

طبعاً لم أكن أحادث والدي، وكنت أتجنب لقاءه، فلماذا يأخذ مني الاستدعاء؟ أخبرت أمي وقالت أني لا أملك سوى الدعاء، وأنه فعلها عمدا ليحطم مستقبلي الدراسي، حسب قولها.

لم أجتز البكالوريا رغم تحضيري الكافي لها، لكن السجائر المحشوة التي كنت أدخنها في المحل ليلا ساعدتني على تخطي هذه المحنة بسرعة.

***

كان الليل بالنسبة لي حرية شخصية أجرب فيها ما أريد، كتبت كلمات أغاني راب وغنيتها، تعلمت صناعة الألحان الموسيقية وأبدعت فيها، ولأن الانترنت لا تنقطع عن المحل، فقد كنت دائم الاطلاع على جديد التقنيات والأساليب.. تعلمت التصميم، والمونتاج، والبرمجة والاختراق.

في إحدى تلك الليالي، وأثناء تجولي في الإنترنت المظلم، كما يحلو للبعض تسميته، لاحظت وجود قناة IRCمفتوحة لكن أعضاءها يتحدثون برموز غير مفهومة، وقد كانت لي نظرة عن علم التشفير، فعكفت أعمل على فك تلك الرموز، ثم برمجت برنامجا صغيرا أكتب له كلمات عادية فيخرجها لي بذلك التشفير، أو أضع له الرموز المشفرة، فيخرجها لي كلاما مفهوما .

هناك تعرفت على أعضاء من كتائب القسام وجزائري، ومغربيين اثنين، وست مصريين، أصبحنا أصدقاء افتراضيين تجمعنا القضية الفلسطينية، وأخبرني أعضاء القسام أن موهبتي لا تستحق أن تهدر في ما أقوم به من تفاهة كما أسمياها، تحدثوا كثيرا عن الهاكر

الأخلاقي وأهميته، وعن الحرب الإلكترونية ودورها ولما رأوا مني قدرة على الفهم والتعلم، فقد اجتهدوا في تلقيني أساليب وتقنيات جديدة غير معروفة لدى العوام من الهاكرز .

أول عملية كانت مشتركة، وقد كنت العنصر الفاعل فيها، حيث أني كنت خبيراً جداً في فن الهندسة الاجتماعية، أو فن اختراق العقول، فاستغللت موهبتي تلك في التعرف على ضابط إسرائيلي على أنني فتاة، وكنت أبث له مقاطع فيديو يظنها هو محادثة مباشرة، كما كنت أرسل له رسائل وصور، ومكثت على تلك الحال عدة أسابيع قبل أن أنجح في اختراق هاتفه الشخصي وحاسوبه في العمل .

كان ذلك الضابط مسؤولا عن كازمة صغيرة في قرية خارج قطاع غزة بأمتار قليلة، كنت أتجسس على اتصالاته، والملفات التي يرسلها أو يستلمها أو يملكها كما كنت أفتح كاميرا هاتفه وأشاهد كيف تبدو الكازمة من الداخل .

هذه المعلومات كلها استغلها أعضاء القسام، فتمكنوا من رسم مخطط مفصل للكازمة، وعلموا تعدادها من الجنود والعتاد، وأماكن الأبواب والمنافذ، ومواقيت تبديل الحراسة، وحتى أسماء الحراس. وفي اليوم الموعود كنت أشاهد أخبار قناة الجزيرة وهي تتحدث عن عملية ناجحة قامت بها كتائب القسام ضد مجموعة إسرائيلية دون أن يسقط شهيد واحد أو يجرح من الفلسطينيين وكنت أشعر بالفخر الشديد لهذا النجاح الذي شاركت في صنعه .

قمنا بعدها ببضع عمليات أخرى جماعية، وقمت أنا بعدة مهام فردية، حيث كنت أنشر بيانات حساسة تارة وتارة أدمرها من حواسيبهم وخوادمهم، وكنت أختار أهدافي بعشوائية فيها قليل من الدراسة .

أحيانا كنت أخترق كاميرات مراقبة عمومية، وأحيانا حواسيب مواطنين، وأحيانا أشل مواقع حكومية لعدة أيام .

وأمام بطولاتي الصغيرة تلك كان مالك المحل وشريكي فيه أيضا يحضر لنفسه عاهرة كل ليلة تقريبا، كما

كان سكيرا، ولم يكن له ملجأ آخر لنزواته تلك غير المحل، وللأمانة فقد أخبرني عن كل ذلك مقدماً ووافقت عليه في غياب حل آخر لي.

كان يسهر مع فتيات الليل إلى غاية الواحدة أو الثانية صباحا، ثم يتركهن لدي في المحل ليمضين بقية الليل وفي الصباح ينصرفن، العديد منهن كن يجربن إغوائي ويضحكن تلك الضحكة الماجنة عندما لا أتجاوب معهن. وبعضهن كن ينظرن لي نظرات متفحصة وأنا مستلقٍ على كرسي أو أريكة أدخن بنهم وأسعل أو أبكي بعينين حمراوين من كثرة السهر والتدخين والمخدر والتفكير، ثم يدخلن في نوبة بكاء هن أيضا، وربما لطمن وجوههن حياءً، وكثيرا ما كنت أسألهن عن سبب هذا البكاء المفاجئ، فيجبنني أنهن شعرن بالذل وانتقاص الذات لأني لم أعرهن اهتماماً رغم إبراز مفاتنهن .

أتذكر أني دخلت في إحدى تلك النوبات التي بدأت تصيبني من حين لآخر، والتي وصفتها سابقاً، وقد بدأت أطراف يدي ورجلي تتحرك بشكل لا إرادي، كنت غير قادر حتى على الصراخ من شدة الألم، ضاق صدري كثيرا

وأحسست أن الزفير الذي أطلقه متقطعاً هو روحي تخرج، وأيقنت أني ميت لا محالة، وبدأت أتلو الشهادتين في داخلي .

في تلك الليلة كانت بالمحل فتاتان هما أختان في الحقيقة، لا يخرجان إلا معاً، كانت إحداهن تبكي وهي واضعة سماعات أذن لم تتمكن من سماعي إثرها، أما الثانية فأسعفتني، وضعت رأسي على حجرها وناولتني مسكنا كان في حقيبتها، ثم قطعت جزءا من قميصها وبللته ووضعته على جبهتي وبقيَت تمسح وجهي وتعيد تبليل الكمادة حتى نمت على تلك الحال .

عندما أفقت وجدت نفسي بملابس مختلفة، كان جسدي لا يزال مثقلاً عاجزاً عن الحراك، وكأنها أحست بي إذ أتت عندي فورا وأخبرتني أني قد تبولت على نفسي أثناء النوبة، وأنها غيرت ملابسي وغسلت جسدي كاملا ونظفت المحل أيضا، ثم اتصلت بمالك المحل ليأتي ويرى حالتي هذه، فحملني على متن سيارته فوراً إلى المشفى ومن المشفى إلى بيتنا .

فور وصولي على تلك الحال السيئة تفاجئت بأمي تسألني عن مصير المحل وعما إذا كنت قد أحضرت معي مالاً، شعرتُ بغصةٍ شديدةٍ وهي تتجاهل حالتي هذه وتسأل عن المال. جلت بنظري في أرجاء المكان ورأيت المنزل على حاله، تحاملت على نفسي لأمشي متفحصاً كل الغرف، والمطبخ، والحمام، لا شيء تغير.. لم تشتر فاطمة كل ما وعدتني بشراءه، ولا يوجد في المنزل غير أثاث بسيط كنت أشتريه من حين لآخر فقط .

اتصلت بعلي، صديقي، أخبرته أن يدبر أمر سيارة ما ويأتي ليأخذني، تركت منزلي وأعادني إلى المحل وعمل به مكاني لبقية اليوم. كان يأتي ليطل علي من حين لآخر وكنت أحكي له بصعوبة ما حدث معي، وكيف قابلتني أمي، وكيف أني أحس بالغدر والقسوة والخيانة .

تخيل أن تسعفك فتاة ليل.. وتنبذك أمك!

قررت ذلك اليوم أن أمي غير مؤهلة لإدارة شؤون المنزل، وأن علي الاعتناء بكل شيء وحدي.

بدأتُ سلسلةً من القرارات الهامة في حياة أسرتنا الجديدة، خصصتُ مبلغ النفقة الذي يدفعه والدي كل

شهر لحاجيات المنزل البسيطة، أما الفواتير فأدفعها أنا مع إيجار المسكن والملبس وباقي المستلزمات الباهضة .

لم تبارك فاطمة هذه القرارات، وبدأت شيئاً فشيئاً تشبهني بوالدي وتقول أني "كلب كيما باباه" تماما كما كانت تفعل معه سابقاً، بدأت تفعل المستحيل كي أصرف أكبر مبلغ ممكن ولا أبقي لنفسي شيئا منه، بدءا من ترك الحنفيات مشتغلة طيلة اليوم، إلى تشغيل كل ما يعمل بالكهرباء حتى تتضخم الفواتير، وصولا إلى تذمرها الدائم من أي مسكن أدبره لهما وسعيها وخروجها البائس للبحث عن مسكن جديد .

أُثقِل كاهلي كثيرا، ومع كل تلك المشاكل تخاصمت مع شريكي وخرجت ببعض المال القليل تعويضاً عن مساهمتي في المحل، وعدت إلى المنزل صفراً.. دون دراسة، ودون عمل.

***

إلهي الكبير، أنت تراني من فوق، أنت في الحقيقة ترى كل شيء، فما حكمك وأنا أتقوقع على نفسي مثل مجنون وأقبض على أطرافي حتى تدمى، وأخرج مسرعاً تاركاً

خلفي كل ذرةِ إيمان، أخرج على الثانية عشر ليلاً إلى نفس الشارع الذي نبذني طفلاً ومراهقاً وشاباً.. وأتذكرك يا ربي، وأتذكر كل شيء، وأندم، وأصرخ، وأبكي وأسقط، ويحملني نفس الصديق الذي حملني عندما ابتسمت رئتاي أول مرة.

يأس العياديون والنفسانيون وأطباء المجانين من إيجاد دواء لعلتي، لأن البشر يا الله لا يرون إلا ما سمحت أنت لهم برؤيته. أما أنا فقد اعتاد جسدي على الأدوية المسكنة ولم تعد ضيفاً غريباً عليه، ولم يعد يهتم لوجودها داخله.

لم يعد أمامي حلٌ غير أن أخرج من جيبي سيجارة أخرى..

إنها تسكن الألم قليلاً، لا تترك غير سيل الدموع وشهقات متقطعة.. تذكرني أن موعد رحيلي إليك قد اقترب أكثر، تلسعني جمرتها على شفتي كثيراً لأني أضعها عليها وأتركها تتضاءل شيئا فشيئا حتى يدركها صديقي وينزعها، أو تدركها دموعي فتنطفئ.

دوت ألحان لارا فابيان في رأسي كثيراً، شعرت أني أترمد حفناً حفناً وكلماتها تعبر ذهني.. فتحاملت على

نفسي ووضعت كلماتك في أذني حتى أغمي علي..
ونمت.. وابتسمت رئتاي أكثر.

الفصل السادس

أمسكتُ يدكَ الصغيرة، في الحقيقة لم أكن أعلم من أمسك بالآخر، غير أني موقنٌ أنني كنت بحاجة لأن أسقي روحي الجافة ببعض الحنان .

عند عودتي بدأت أرى أمورا جديدة لم أكن ألاحظها من قبل فكنت أجد أخي ينظف المنزل كل يوم وحده، ويقشر الخضراوات، ويساعد والدتي في الطبخ، ويغسل الملابس.. هذه الحالة لم ترق لي، فبدأت أعيد ما فعله أبي معي في السابق، أخرج معه في تمشيات طويلة أحدثه عن العالم الخارجي وصفات الرجال، أخبرته أن القاعدة هي أن يساعد الابن أمه في شؤون المنزل، وليس أن يقوم بها جميعها بنفسه، لأن هذا من شيم النساء، كما أن أمه ليست عاجزة أو مريضة ليقوم بكل ذلك، وكان ينقل لها كل كلامي لتواجهني به ليلاً وتتهمني بتحريض ابنها عليها وزرع أفكار سلبية في ذهنه .

اشتغلتُ بعدها في عدة وظائف بسيطة لم أمكث فيها أكثر من شهرين، بائع في محل، مصمم مواقع، صانع باركود للمنتجات.. وبقيت على هذه الحال أتخبط من عمل لآخر نهارا، وأتسكع من شارع لآخر ليلاً، وفاطمة تفعل ما بوسعها لاستنفاد كل ما تبقى لي من مدخرات .

بعد كل تلك المحاولات قامت فجأة بخطوة غير متوقعة، اتصلت بأهلها وأقنعتهم أن ترجع وتسكن

معهم، ولم يفتها أن تضيف بعض الدراما على قصتها مثل صغر سني وعقوقي وحيادي عن الطريق المستقيم، وكأني لم أفعل لها شيئا في حياتي.

في بيت أخوالي عشت مثل ضيف غريب، كنت أخرج في الرابعة صباحا، أقتني بضع جرائد وأبحث عن مكان ملائم أمضي فيه يومي، فأبيع ما تيسر لي منها، لم تكن الفائدة التي أجنيها من هذا العمل تزيد عن راتب فاطمة التي عملت معي عند الموثق .

وفي المساء كنت أعود لبيت أخوالي، فأمارس بعض الرياضة، توقفت عن حشو سجائري لكنني لم أتوقف عن التدخين، وكنت أفطر وأتعشى وحيداً، وكان أكلي قليلاً جداً. ذات يوم كانت أمي في المطبخ، وكنت بحاجة لأشرب، فاطمأننت لوجودها ودخلت عندها لأجدها تملأ قارورة مشروب غازي تخص جدي، والدها، بسمّ الفئران !

نقتلو.. نقتلو..

ثم شرعت في البكاء والنواح وعانقتني، لكني دفعتها بقوة وخرجت من المنزل دون عودة .

أمضيت قرابة الشهر عند صديق جديد تعرفت عليه عندما كنت في مقهى الإنترنت، حيث كان في خصام مع زوجته، وكان قد أرسلها لبيت أهلها، فمكثت عنده تلك المدة. كنت أفكر في كل شيء، في المصيبة التي أنا فيها، وبدأت أقتنع أن فاطمة مريضة نفسياً وأن حالتها تستوجب العلاج.

***

تزامن مكوثي عند هذا الصديق مع قراري بالهرب من كل شيء، وكان الحل الوحيد أمامي أن ألبس قبعة عسكرية أيا كان لونها، المهم أنها ستأخذني لمكان بعيد.. بعد عدة طلبات تم قبول طلبي بالانضمام إلى سلك أمني أخيراً واستلمت ورقة تطلب حضوري إلى مركز تكوين في ولاية بعيدة لمدة سنة كاملة.

كنت أعود للمنزل نادراً، وكان أغلب يومي يمضي في الدراسات النظرية والميدانية، والتدريبات المختلفة، لنعود في المساء منهكين، فكنت لا أشغل بالي كثيراً بالأسرة.

انتهى التكوين بسرعة بدايته، وتخرجنا في يوم جميل، وافترق كل منا إلى مكان عمله الجديد، واستلمت وظيفتي الأولى في ولاية بغرب الجزائر .

أصبح أخي يحبني أكثر ويشتاق لوجودي في المنزل، خاصة أني كنت أحضر معي أشياء مختلفة له في كل مرة أعود، كما كان يحب تلك القصص التي حدثت معنا أثناء التكوين، والتي يحكيها كل من مثلي لعائلته عادة. أما فاطمة، فلم تكن تسأل عن أحوالي ولا عن صحتي، بل كانت محادثاتها الهاتفية معي مثل محاسب بنك يتصل بزبون، وعند عودتي للمنزل كان جل حديثها عن فاتورة تنتظر تسديدها، وديون لجأت إليها في غيابي، وطبعاً لم تضف رغم كل هذا أي شيء للمنزل.

لم أكن أشغل بالي بها ذلك الحين، كنت قد قررت الاعتناء بنفسي قليلاً، غيرت تسريحة شعري، واشتريت بذلتين بطابع كلاسيكي شبابي، ووضعت خاتم خطوبة لأوقف نظرات الفتيات لي، لأني تعلمت أنهن يحببن شكلي الخارجي، أما قلبي فالمرأة المستعدة لقبوله

والاعتناء به لن تأتي بتلك الطريقة، وتلك النظرات والإيحاءات .

ربما أكثر ما كان يجذبهن فيّ هو طول قامتي، وبياض بشرتي، وعيوني العسلية.. هكذا كن يقلن في أغلب الأحيان !

ومع مظهري الجديد هذا ومجيئي النادر إلى المنزل، لم يكن جيراننا يشاهدونني إلا خارجا أو داخلا، فسرت عدة شائعات أني أشتغل في أمن الدولة، وأن الاقتراب مني أو من عائلتي خطأ لا يغتفر، فاطمئن قلبي لهذه الاعتقادات، وأصبح بالي لا ينشغل كثيراً على أخي الصغير.

أخيراً لم تطق والدتي كل هذه التغييرات في شخصي وطلبت مني أن أمنحها راتبي كاملاً، كما أنها سألت عن موعد قبض الراتب وعن قيمته، وقد رفضتُ هذا طبعاً، لتفتح بيني وبينها باباً واسعاً للقطيعة والرغبة في الانتقام لم يغلق بعدها أبداً.

منذ هذه الحادثة رفضت والدتي التحدث معي إلا للضرورة القصوى التي تصب في مصلحتها طبعاً

كحاجتها الكاذبة لزيارة طبيب، كنت أمنحها ما تطلب وهي لم تكن تزوره رغم المرض، كما كانت ترفض أن آخذها بنفسي، كل ما كانت تبحث عنه هو المال .

وكأن كل ما فعلَتْه من قبل لم يكن كافياً، فبدأت تزرع في ذهن أخي أفكاراً تجاه أبي وعائلته، وتجاهي أنا أخوه الذي فعل كل مستحيل من أجله، قالت أنه لا دخل لي في ما يفعله أخي، وأني مجرد "كلب يحط الدراهم" فقط، أي أن وظيفتي انحصرت من رب عائلة، لماكينة صرف.. وابتسمت رئتاي أكثر وأكثر .

***

أحياناً أدخن سيجارة ما بعدها سيجارة حتى تأتيني نوبة السعال والضيق تلك، فأبكي كثيرا، وأضرب وجهي على الحائط، وأتمتم بكلمات غير مفهومة حتى أسقط مغشيا علي. أفعل هذا لا إرادياً طلباً للحل المثالي للتخلص من كل شيء: الموت .

أنا شخص يفكر كثيرا، يفكر في كل تفصيلة، تخيلت في نفسي لحظة أني أود خطبة فتاة، فيسألني أبوها عن أبي وأمي، وأعمامي، وأخوالي، وجيراني.. ماذا سأخبره؟ هل

سأقول له أنهم كلهم سيئون وأنني الوحيد الصالح بينهم؟ أي أحمق سيصدق هذا !

كيف يمكن لأم أن تفعل هذا بابنها الذي خسر دراسته وتعليمه وطفولته ومراهقته وشبابه وقد يخسر مستقبله أيضا بسببها؟ كيف يمكن للأم أن تكون قاسية إلى هذا الحد.

بحثت في القرآن، هذا الكتاب المقدس، المنزل من السماء، الحامل لكل تعاليم ديننا، وحاولت بفهمي القاصر أن أجد حلاً في آياته ..

أو فارقهما بإحسان

هل هذا يعني أن علي الخروج من المنزل، والإحسان إلى فاطمة وأخي من بعيد لأتجنب الأذى؟ وهل سيكونان قادرين على تدبير أمورهما بدوني؟ هذا السؤال استوقفني كثيراً وجعلني أعدل عن قراري بالخروج واخترت أن أصبر مجدداً، واختارت رئتاي الابتسام أكثر.

مشاكلي في العمل لا تنتهي، فقد عرفت كشخص يجيد كل ما يحيط بالكمبيوتر والتكنلوجيا، وهو ما جلب لي أعداء كثر، وحاسدين أكثر، لذلك كنت أهرب أحيانا من

مشاكل العمل إلى مشاكل البيت، وأحيانا أخرى من مشاكل البيت إلى مشاكل العمل.

أصبحت شخصاً حساساً جداً، أغضب لأسباب تافهة جدا، أغضب للسبب، ثم أغضب لأني غضبت. أدخن بشراهة، وألعن كل سيجارة لا تجلب لي معها سعالاً، أشاهد دفعتي من الموظفين وهم يخطبون ويتزوجون ويبنون مساكنهم ويشترون سياراتهم وأنا لم أدخر لنفسي ديناراً واحداً بعد .

أعتقد أن الأمر الأخطر على نفسي وصحتي هو أنني كنت أبقِي أوجاعي لنفسي، فطالما عرفت كشخص طيب المعشر، دائم التبسم في وجوه الآخرين، وطالما فعلت ما بوسعي لمساعدة أي كان ولو على حساب وقتي أو صحتي .

جميع من معي في العمل كانوا يعتقدون أن مستواي جامعي، ولاحقاً جميع من يتابعني افتراضياً، كنت أبتسم بصمت إزاء هذا الاعتقاد، لكن في داخلي كنت أشعر بالغضب الشديد، لأن مجتمعنا يقرر احترام شخص ما ويقيس مدى ثقافته، بناء على مستواه التعليمي .

صحيحٌ أنني توقفت عن دراستي مرغما، لكني لم أحب التعليم الحكومي أبداً، قرأت منذ صغري عن سير العظماء وأصحاب المال والشركات، وقد كان أغلبهم ذوي مستوى تعليمي متوسط كحالي، كل ما تعلموه لم يكن في المدارس الحكومية، بل تعلمو وحدهم بطرقهم الخاصة، وعليه فقد قررت أن أكون مثلهم، لذا حصلت أثناء عملي بمقهى الانترنت على ثمان شهادات من أمريكا في مجالات متعلقة بالكمبيوتر، مثل التسويق الإلكتروني والصيانة والبرامج المكتبية والتصميم والمونتاج والبرمجة ..

قبل مقهى الإنترنت ذاك، كان في رصيد مشاركاتي على الإنترنت تسع كتيبات إلكترونية، وعشرات المقالات المترجمة إلى اللغة العربية، والتدوينات. أما في المحل فقد أنشأت موقعا إلكترونيا لتحميل الكتب بشكل مجاني كان موقعا احترافيا بحق، فقد كان يضم ملخصا عن كل كتاب، ورابطا مباشرا لقراءته دون تحميل، وآخر للتحميل، وآخر لسماعه صوتيا، وآخر لطلبه من أحد مواقع البيع المعروفة .

عرفت بتسميات مختلفة، كنت أغير هويتي في كل مرة، بعد كل عملية غير قانونية أقوم بها ضد الكيان الصهيوني، تخوفا من أي صلة تتبعني .

رغم حقدي الدفين على المجتمع لأنه لم يكن في صفي حينما احتجته، غير أنني ومنذ صغري كانت لدي ميول لمساعدة الآخرين في المجالات التي أتقنها، والمجال الثقافي أيضاً .

قررت أن أمزج كل مهاراتي في مشروع واحد ضخم وقابل للتوسع إلى حد كبير، خططت لكل شيء، كنت ولا أزال واثقا أن مشروعي هذا بإمكانه تغيير عقلية بلد بأكمله نحو الأفضل إن لقي دعماً كافياً .

أخيراً بدأ مشروعي ..

أنجزت مخططات لكل أفكاري، وبسبب وضعيتي المادية الصعبة قررت أن هذا المشروع يجب أن يمول نفسه، فكان الأمر أشبه بعلب الهدايا، كلما لقي المشروع دعماً من طرف الجمهور كافئتَهم بهدية جديدة يستفيدون منها، فكان أن أنشأت متجراً افتراضياً هو الأول من

نوعه، وهناك بدأت مشاكل الوضع الثقافي في الجزائر تطفو على سطح أفكاري .

منذ البداية كنت أفعل ما أفعله عن حب، وأقسمت ألا أدخر دينارا واحدا من أرباح المتجر لنفسي، سار كل شيء على ما يرام في أول خمسة أشهر، حققت أرباحا كافية لأبدأ في التوسع .

فجأة ظهرت حسابات على موقع فيسبوك وصفحات ومجموعات كلها تمارس نفس ما أقوم به، سألت عن مالكيها واتضح أنهم مجرد تجار باسم الثقافة. لم يكن هؤلاء يقدمون خدماتهم بمستوى ما كنا نقدمه، لكني فجأة لاحظت انخفاض الطلبات من متجرنا، وبالمقابل بدا أن تجارة هؤلاء الطفيليين مزدهرة إلى حد ما.

أدخلتني هذه الحادثة في دوامة من الحزن، لأن مصدر تمويل مشروعي يواجه الفشل، والجمهور الذي أفكر وأخطط وأفعل ما أفعله من أجله توقف عن دعمي على حساب هؤلاء الدخلاء. تكبدت خسائر فادحة وتكدس لدي مخزون معتبر، فكنت أقوم بعدة تخفيضات وأعرض أسعارا لا تغطي حتى رأس المال .

جميع من يعرفني ويعرف بشأن المشروع أخبرني أن ما قدمته كاف وأن علي التوقف عند هذا الحد، وأثناء كل هذه التداخلات حدثت في حياتي الشخصية مصيبة أخرى.. أو لنقل، قاربت على الحدوث.

عدت إلى المنزل راجعا من العمل كعادتي، وفور دخولي شرعت فاطمة في بكاء مستمر، ثم اتصلت بمؤجر المسكن وأخبرته أني أضربها وأشتمها، وأنني رفضت تسديد فاتورة الكهرباء، وأنني أهددها بطردها من المسكن وخطبة فتاة وإحضارها للعيش معي !

جلست مصدوما أراقب كل هذه المسرحية التي حيكت بدقة، بعد إنهائها المكالمة مباشرة أتت لي باسمة وأخبرتني أن أدفع إيجار السنة المقبلة وأن أحمل أغراضي وأخرج دون عودة.

لم ألبث وأنا أحاول فهم ما يحدث لتتغير نبرة حديثها معي فجأة وتبدأ في تهديدي أنها ستدخلني السجن لأنني "كلب مثل بابا" ثم قالت بلهجة ساخرة أنها لا تستطيع الانتظار حتى أدفع الإيجار، وأنها تود فعل هذا الآن.. فوراً .

توجهت فاطمة إلى خزانة ثيابها وبعثرتها في باحة المنزل بخفة ثم بدأت في الصراخ وطلب النجدة، فهمت ما يجري مباشرة، ستحضر الجيران إلى هنا وسيشهدون ضدي طبعاً فقط لأنها أمي. عندما تكونين أما فهذا يعني أن لك الصلاحية المطلقة في ارتكاب الأخطاء تجاه ابنك والمجتمع سيكون معك على الدوام وسيلوم ابنك على عقوقه أيضاً، فقط لأنك أمه.

خرجت من المنزل بسرعة راكضا نحو المقهى أين كان صديقي علي، وبمجرد وصولي أخبرني أن والدتي أتت إليه قبل يومين وأخبرته أني قد تغيرت وأني أصبحت أضربها إلى آخر الحكاية السابقة.

ما الذي تفعله والدتي بي؟

لم أتمالك نفسي وشرعت في بكاء شديد اندهش إثره كل من كان في المقهى الذي التقينا فيه أنا وصديق طفولتي. بعد دقائق قليلة من توقفي عن البكاء اتصلت بي فاطمة وكان جسدي لا يزال يرتعش من هول الموقف بدأت تتحدث وتتحدث دون انقطاع وبصيغة ساخرة مني. كانت تقول أنني نكرة، وأني لم أقدم لها شيئا، وأن

مكاني الصحيح هو تحت رجليها لأن هذا ما قاله ديننا وأني عاص ومتمرد على طاعتها ليمتزج حقدي بغضبي وأرد عليها بلهجة غاضبة.

تركتني فاطمة أنفس عن غضبي، وفي الأخير أخبرتني أنها عند مكتب المحامي، وأن كل ما قلته قد تم تسجيله وسماعه من طرفه، وأنها تحضر لي مفاجئة قريباً .

بت تلك الليلة في الشارع، بكيت كما لم أبك من قبل تذكرت كل شيء، وفي غمرة هذه الحالة وصلتني رسالة شتم مطولة على صفحة المتجر لأني لم أرد على رسالة صاحبها منذ الصباح، كرهت كل شيء فعلته في حياتي تلك اللحظة .

لماذا كتب الله لي هذا القدر؟

لماذا حرمت من أبوة والدي، وصدر أمي، لماذا يجد الناس العاديون صدراً يبكون عليه ولا أجده أنا، أهذا السبب يا ترى تثيرني صدور النساء؟

لماذا لا يمكنني القيام بشيء يسعدني لمرة واحدة في حياتي.. حتى مشروع ثقافي؟

لماذا لا يوجد شخص في العالم يمكنه أن يفهم أني أحاول القيام بشيء إيجابي هنا مع أسرتي ومع المجتمع وأين أنت يا أبي من كل ما يحدث؟

ها أنا أقولها أخيرا يا أبي، أنا أحتاجك.

أنا لا أحتاجك لشخصك، بل أحتاج شعور الأبوة ذاك، أحتاج لأنام وفي ذهني فكرة أن هناك رجلا يحمي المكان برجولته وحكمته وقراراته، لم أعد قادرا على التحمل أكثر يا أبي، فهل يمكنك أن تفهم في غربتك تلك شكل حاجتي إليك؟

أنا الآن أفهم كل شيء، لقد كنتَ صامتا إزاء ما كانت تقوم به مثلي تماماً..

كنت تمضي يومك خارج المنزل مثلي أيضاً..

كانت تضخم الفواتير وتبذر وتسرف في كل شيء كما فعلت معي..

كانت تهددك بخنجر مثلما هددتني بالسجن ..

كانت تخرج من دون علمك مثلما اتخذت معي قرارات جريئة دون مشاورتي لأنها لم تكن تعترف برجولتنا نحن الإثنين..

كم أنا مغفل! لقد كنتُ طيلة الوقت في الجانب الخطأ من الطريق، لكن لا مجال للتراجع الآن، فلو عدت سيظن أبي أني عدت إليه بسبب حالتي المادية، وماذا عن أخي، وعن فاطمة.. ألازلتَ تدخل تلك المرأة في حساباتك أيها الأحمق.. لكنها أمي.. لا تستحق امرأة مثلها أن تكون أما لشخص مثلك.. توقف.. وأغمي علي .

استمرت قطيعتي مع والدتي، واستمر كره أخي لي واستمرت خسارة المتجر، واستمرت المشاكل في العمل.. كل شيء سيء يتكرر ببلادة ..

***

أنا رئتاي تبتسمان للموت، تتسع ابتسامتهما أكثر وأكثر كل يوم حتى أصبحتا مثل ابتسامة الجوكر العريضة. أما أنت فتبتسم بطريقة مختلفة وأنت في عزلتك المفروضة تلك..

يبتسم الورم في خصيتك اليسرى أكثر ليصبح بحجم الخمسة عشر ميليمتراً، يبتسم قلبك للإجهاد المتكرر

وتبتسم عيناك الدامعتان كلما التقتا بوجهي أو بِرُوزا.. أقصد سيجارتي.

أنت لا تستحق كل ما يحدث معك وحولك، لأن أعوامك الخمسة عشر لا يمكنها أن تعي ذلك كله مهما تمددت، لكنها يد القدر تعبث بمصائرنا، تسيرها كيفما شاءت، وتلقينا على حافته.. رجلين تائهين لا يعلمان لماذا كتب الله لهما هذا القدر.

كُتب لك أن تعرف شكل ابتسامتك لتتألم به لاحقاً، وكُتب للأطباء أن يصارحوني به أمامك حتى يتركوا لي لوعة البكاء فقط، ويجنبوني عناء التفسير.

لنلعب قليلاً ما دمنا على قيد الحياة.. أنت ركّب داراتك الكهربائية واصنع فناً من أوراقك، وأنا هنا مع رتبتي وشغفي.. لننافق أنا وأنت قليلاً ونظهر بمظهر مبدعين غريبين يعلم الجميع أن ورائهما حكاية غريبة من نوع ما.. ولنكتب وجعنا من حين لآخر كخاطرة أخرى يكتبها شخص آخر.. لننافق ونلعب ما دمنا هنا معهم!

لكن لا تيأس، فمهما اشتد ألمنا واتسعت ابتسامتنا وازدادت رغبتنا في البكاء، مهما افترقنا واجتمعنا

واحترقنا.. ثق بأننا سنموت معاً، شهيدين مبتسمين عقرت نساء العالم عن إنجاب مثلهما، وعجز رجاله عن فهم شكل حاجتهما.

***

أصبح العديد يطلق علي كنية جديدة استلهموها من مسلسل اسباني، ولازمني هذا اللقب إلى اليوم. أنشأت حسابا جديدا على فيسبوك بذلك الاسم وبدأتُ مهمة جديدة كنت قد مارستها من قبل، ولا تتطلب مالاً.. التدوين.

من سلبياتنا نحن العرب أننا نبيح سرقة ما يقدمه الآخرون، وإن حدث واعترض أحدهم فإن الجميع يقف ضده، وهو ما حدث معي، حيث كنت أجتهد في كتابة مقالات ثقافية وتقنية مطولة أضع فيها زبدة ما أعرفه، لأجدها لاحقا في صفحات ومجموعات أخرى دون ذكر اسمي، هذا كان يغضبني كثيرا وكنت أنتقده باستمرار وكنت أتعرض لسخرية من الجمهور الذي صنفني كشخص متعجرف فقط لأنه قدم "مجرد مقال"، وأن

مقالاتي لا ترقى للمستوى المطلوب حتى أدافع عن سرقتها، ورغم كل شيء واصلت في كتابتي.

تعقدت حالة أخي أكثر فأكثر، وأصبح مستقبله كرجل مهدداً، لأن أمه جعلت منه أكثر من فتاة، جعلت منه أشبه بخادمة، وأمام كل هذا كانت دائما تواجهني كلما تحدثت معه عن هذا، فوصل به الأمر حتى النوم معها في فراش واحد رغم أنه قد بلغ السادسة عشر من عمره السن الذي كنت أنا فيه أبيت في الشارع .

تعرضت لحادث عمل تسبب في قطع رباطين من أصل أربعة أربطة تربط الركبة، فلزمت المنزل ممنوعا من الوقوف لمدة أربعة أشهر. تم توقيف راتبي الشهري فاضطررت للاستدانة، وأمام وضعيتي تلك كان لزاما علي منح المبلغ الذي استدنته لوالدتي لتتصرف فيه .

لم يمض شهر حتى بدأت تتذمر مني وتحثني على العودة للعمل بإصابتي تلك، وكانت تسب وتلعن كل شيء طيلة اليوم، وكنت في مكاني أبكي وأطلب منها أن تسامحني لأني مريض، ولست أدري كيف كانت هذه الكلمات تخرج من فمي .

منعت فاطمة ابن عمي الحلاق من زيارتي ليطمئن علي ويحلق شعري، ومنعت صديقي عبد الحميد من زيارتي أيضا رغم كل ما قدمه لي ولأسرتي، وأدخلت أصدقاء العمل مكرهة فقط لأن بعضهم إطارات في الدولة، أتذكر أن اثنين منهما لاحظا وجود صناديق خضار في الصالة الفارغة من أي أثاث، كما لاحظا وجود مكيف الهواء في غرفة والدتي وأخي، والحرارة الشديدة في غرفتي، والتي جعلت جسدي يتعرق كثيرا، فأصبحت متسخا وأصبحت رائحتي مثل جثة .

فاطمة لا تقبل أن يزورها أي ضيف مهما كانت صفته، وقد كانت تلك المرة الأولى التي يأتينا فيها ضيف منذ.. منذ أن فتحت عيني على العالم .

عاد الزميلان مرة ثانية بمساعدة مادية وضعتُها على مائدة في غرفتي وخرجت أتكأ بصعوبة لتوديعهما، عند رجوعي لم أجد المال، أخذته فاطمة .

استدنت مجددا لأدفع تكاليف العلاج والأدوية وأخبرني الطبيب أن حالتي تستوجب إجراء عملية جراحية لجمع الرباطين من جديد، ولأن تكاليف العملية

فوق قدرتي وهو ما صارحته به، فقد نصحني ألا أجري مجددا، ولا أقف كثيرا، وحذرني من إمكانية حدوث إصابة أخرى مستقبلاً .

هكذا إذن عدت إلى العمل، غير قادر على السجود أثناء الصلاة، ولا طي رجلي في الحافلة، أحيانا تسيل دموعي أثناء تنقلي للعمل من شدة الألم، أما عندما يكون الجو باردا، فأحس بصعقة كهربائية تنتقل داخل جسدي وعند الاستحمام أحس أن عظمة ركبتي ستخرج لا محالة، فأكمل حمامي بالماء البارد وأتحمل برودة الماء على إصابة جديدة .

عودتي للعمل حملت معها عبئا جديدا، عبئ إرجاع ديوني المتراكمة، فلم يكن يكتمل شهرٌ واحد لأجد نفسي دون مال يكفي للتنقل إلى العمل أو شراء السجائر، فكان صديقاي علي وعبد الحميد يمنحاني ما تسمح به وظيفتهما المتواضعة كطباخين بسيطين .

وسط كل هذه المشاكل واصلت العمل على مخططات مشروعي الثقافي وأنجزت العديد منها رغم تضخم صدري بالأوجاع، أحسست أني في حاجة لإفراغ كل

ذلك على ورقة، فكتبت بوحي الأحمق وأوصلته إلى عنوان لم يكن بالغه إلا بشق الكتابة.. إلى البروفيسور

***

إلى البروفيسور، لا أشعر أنني بخير.. سمعت أنهم سرقوا رئتي اللتين تبتسمان للموت قريباً، وأخبرتني أنك تكفلت بكل شيء، لكني لست بخير حقاً. أولئك الأغبياء، هل يا ترى لديهم قلب ينبض ليسرقوا أحزاني بهذا الشكل الفج؟

لقد كنت أختزنها في صدري منذ زمن، وعندما قررت أخيراً أن أفرغها في بوح أحمق كهذا يفعلون بي هكذا!

لقد تخلى العالم عني يا بروفيسور، لقد ذهبوا جميعاً، أنا لا أحس أني مشردٌ جسدياً فقط، بل نفسياً أيضاً، أحس أن لا شيء في مكانه الصحيح.

لقد استسلم أحد المشردين مثلي أخيراً للحياة، وهو اليوم في دمشق يتعلم فنون جهاد النكاح. أتساءل وأنا أشعل سيجارة جديدة، كيف يتمكن هؤلاء الأوغاد من غسل عقلٍ شاب!

وجدت صفحةً من جريدة ألقتها نسمة ريح حارة على الرصيف بجانبي، شاب في الخامسة عشر يغتصب فتاة، ويقتلها، ويرميها من الطابق السادس! لا عجب إذن أن يتخلى العالم عنّي، الأرواح أصبحت سلعة رخيصة هذه الأيام، وها هي فتاة لا ذنب لها في الحياة يُفعل بها هكذا.

لم تعد لأرواحنا قيمة يا بروفيسور، لم تعد هناك قيمة لأي شيء.. الأمراض والاغتصاب والقتل والإرهاب ثم فئة من متابعيك، يعيش بعضهم في فيلا والده المؤمنة غرفته تساوي خمسة أرواح كروحي، لأن بها فتاة ليل من النوع "الشيك"، ونقوداً، ومفتاح سيارة.. يلهون في يومهم، ويسرقون ما أعتصره لك من ألم ليلاً.

لكن لا تدع كلامي يصيبك بالإحباط يا صديقي لديك متابعون حقيقيون، لكنهم لم يفهموا جوهر الحياة بعد كما فعلت أنا، ولهذا هم لم يعلموا هل كان ذلك البوح خيالاً، أم قصتي، أم قصتك، أم قصتنا المشتركة، هم لن يفهموا، ولن يتفهموا أيضاً، فلا داعي للتبرير يا رفيقي..

افعل ما يفعله الجميع، تفاعل معهم واترك الباقي لنا وحدنا.

اللعنة! لهيب تلك السيجارة يؤلم شفتي، لقد سقط رمادها على قميصي، لكن هذا لا يهم، المهم أن نيكوتينها سقط داخل رئتي، هذا كل ما يهمني الآن.

لقد عدلت خطة انتحاري يا صاحبي، لم أعد أريد الموت بسرعة، لهذا غيرت نوع سجائري إلى أخرى مكتوبٌ أنها لا تحتوي كثيراً من السم.. هكذا سأستمتع بكل لحظة، سأموت ببطءٍ يليق بي.. سعال فاكتئاب فصداع فدوخة فسقوط فساعات في غرفة العمليات فغيبوبة فسكتة قلبية! يا لها من خطة رائعة للتخلص من "الآخرين."

هل تعلم أكثر ما يؤلمني بعيداً عن حياتي؟ تؤلمني سخافتك التي تضعها من حين لآخر يا بروفيسور، ما الذي يجعلك تنصرف عن حياتك هكذا لتخطط لمشاريعك ومقالاتك، أنت دائما تقول أن هدفك إفادة الآخرين، وأنا دائما أسألك: هل هم مستعدون ليفيدوك بالمقابل؟

هل تذكر، كان سؤالي دائماً يجعلك تصمت، نعم لأنك تعلم الحقيقة وتتجاهلها عن عمد، تتجاهلها لأنك تحب ما تقوم به.. لكنه بلا فائدة صدقني.

أعلم أنك ستنشر هذا، وأعلم أن عدة حمقى في حسابك ينتقدون طول كتابتك، لذا لن أطيل عليهم.. سأتمشى قليلاً في شوارع المدينة، ربما حملت معي فنجان قهوة مرة، ربما شغلت موسيقى ياني أثناء ذلك أيضاً وغداً أتلقى راتبي الذي أوزعه على أشخاص لا يستحقونه.. على عائلتي التي تركتها وتركتني.. كنوع من الوفاء، وأبقي لنفسي ما يضمن لي شراء سجائري وقهوتي.. فقط.

صديقك يوسف

***

بعد إنجازي لأحد الأفكار التي اعتُبِرت حصرية رفقة فريق من المؤلفين والمثقفين بأيام، وصلتُ مع والدتي إلى طريقٍ مسدودٍ بشكل نهائي، فجرنا كل القنابل وتحدثنا عن كل شيء بصراحة، صرخنا كثيرا وتجمع الجيران عند باب المنزل، واجهتُها بكل شيء، وواجهتني بحقيقة شعورها تجاهي وما تخطط للقيام به .

قالت فاطمة أنها أمام حلين، إما أن تحصل على سكن مجاني كإعانة من الدولة، فتهدم مستقبلي وتعيش رفقة أخي على ما يدفعه أبي من نفقة، وإما أن تدخلني السجن وترجع أخي عند أبيه، وتذهب هي لدار العجزة وتضعني في موقفِ من رمى والدته ليخلو له الجو ليتزوج !

ما لم تكن تعلمه هي أن كل شيء كان موثقا بالفيديو لم تعلم أني أسجل حديثها، ومشاهدها وهي تحمل الخنجر عدة مرات ليلاً وتقف عند باب غرفتي، لم تعلم أني عرفت بكل هذا قبل أن تقوله، لأنها قالته قبلاً لمن تسمى مجازاً صديقتها، ربما كنتُ غبيا في بعض قراراتي

لكني كنت أيضا عبقريا في التكنلوجيا، وقد استغللت كل ذلك .

أصبح وجودي في البيت يمثل خطراً عليّ وعلى أخي لأنها كانت تؤذيه وتضربه فقط لأتدخل أنا وتخاصمني.. فتشجعت أخيرا واتصلت بوالدي، من يصدق أني لا زلت أحفظ رقم والدي بعد عشر سنوات كاملة! حتى رقم عمتي لا أزال أحفظه ..

اتصلت به وأخبرني أن ألتقيه في بيت جدتي، حكيت كل شيء لمحمد، كنت أحتبس دموعي، لكنه لم يقدر على ذلك وبكى أمامي، كانت تلك المرة الثانية التي أرى فيها والدي يبكي، أما المرة الأولى فهي قصة أخرى..

اتصل بي صديقي علي وأخبرني أن عمي الأصغر، ذاك الذي كنت مقربا منه، وكانت علاقتي معه مثل علاقتي مع صديق حميم.. توفي.

طلبتُ أيام راحة مستعجلة من العمل ودخلت منزل جدتي الذي لم أدخله حينها منذ تسع سنوات، تفاجئ الجميع برؤيتي، غير أن تعاملنا كان وكأننا لا نزال معاً سلمت على جدتي وباقي الحضور وعزيتهم وعزوني في

هذه المصيبة، ورأيت وجه عمي للمرة الأخيرة، ورأيت والدي يصلي ويبكي .

كان عمي مصاباً بالسرطان، فشلت جميع محاولات الأطباء في إبعاده عن جسده، فتوفي بسببه، ولا أزال إلى اليوم أدعو الله في صلاتي أن يكون في منزلة الشهداء .

لم أبكِ حينها.. اهتممت بكل شؤون المعزين، وزعت الأكل، دبرت أمر الكفن وشاحنة النقل إلى المقبرة وساهمت في عملية الدفن، ومكثت طويلا مع والدي الذي لم يتوقف عن البكاء، أما أنا فلم تسقط على خدي دمعة واحدة .

بعد ثلاثة أيام عدت إلى العمل، في تلك الليلة دخنت كثيراً وجلست أتذكر كل ما حدث، أحسست أن قطعة من جسدي قد ضاعت للأبد، فانقبضت أطرافي لا إراديا، وانكفأت على نفسي وتقوقعت، وبدأت أحس بالألم في رأسي ووجهي، وبدأ تنفسي يضيق، وبدأت دموعي تسيل بغزارة.. إنها تلك النوبة اللعينة، وابتسمت رثتاي أكثر.. ابتسمتا باتساع هذه المرة .

تذكرتُ هذه الحادثة وأبي يبكي أمامي للمرة الثانية ليس بسببي، فأنا مثلما قال رجلٌ قادرٌ على تدبر أموره بنفسه، ولكن على أخي وما يجري معه، لقد كان يفكر تماما كما أفكر أنا.

رحبت بي جدتي ومن معها، ومنحوني مكاناً أنام فيه ريثما يقوم أبي ببناء غرفة خصيصاً لي، أما أخي فلم نجد حلا لتخليصه من الحالة التي هو فيها إلا إن هو أراد الرجوع بمحض إرادته .

دخلتُ عند فاطمة وكأن شيئا لم يكن، وبدأت أحزم أغراضي بطريقة لا تثير الريبة، قابلتني بابتسامة، لقد كانت ذكيةً جداً لحدٍّ أنها فهمَت أني مغادرٌ دون عودة، فمنعتني من أخذ عدة أغراض تخصني كجهاز حاسوبي وألبستي .

رجعتُ مثلما كنت في الشارع، دخلت صفرا وخرجت صفرا كذلك..

أما مشروعي فقد توقف لغياب الكمبيوتر الخاص بي والذي يضم كل أفكاري وإنجازاتي وأدوات عملي.

بعد بضعة أشهر على هذه الحالة ساعدني محمد على فتح مقر لمشروعي الثقافي ذاك، وهذه المرة اخترتُ منفى جديداً هو العاصمة الجزائرية .

بدأت الأمور تتحسن قليلاً، غادرت وظيفتي الحكومية، ولم يعد يربطني بالشلف غير أخي الذي كنت أزوره من حين لآخر وأمنحه ما يكفيه من مالٍ هو وفاطمة .

ذات يومٍ كنت جالساً أعمل في محلي عندما دخلت روزا..

تنويه:

الطبعة الورقية من الرواية متوفرة ومتاحة للشراء من أي دولة.

لطلب نسخة ورقية من الكتاب يرجى التواصل مع المؤلف:

أيوب بنبري

benebriayoub

me@benayoub.com

www.benayoub.com

أيوب بنبري

كاتب، مدوّن، مصمم ومبرمج من الجزائر. ساهم في إثراء المحتوى العربي بعشرات المقالات الأدبية والتقنية، قدّم كذلك ثمانية كتب إلكترونية كلها في مجال التقنية .

أسس مشروع كتبيديا الثقافي الذي تنطوي ضمنه عدة مشاريع من بينها متجر كتب، أكاديمية لتكوين المؤلفين ودار نشر فتية .

benebriayyoub@gmail.com

bayoub.kotopediadz.com

أيوب بنبري /

"أنا أعلم أن في دور العجزة غرفاً تأوي الآباء والأمهات الذين كانوا ضحية أبنائهم.. فهل في تلك الدور يا ترى غرف أخرى للأبناء الذين كانوا ضحية أوليائهم؟"

بمثل هذه الكلمات يسرد يوسف أجزاء متفرقة من الجحيم الذي عاشه طفولة ومراهقة وشبابا. بعد قراءتك لهذه الرواية قد تحكم على يوسف بأنه ولد عاق، وقد يؤثر بك لدرجة تجعلك ترغب في احتضانه.. لكن الشيء الوحيد المؤكد في هذا الكتاب هو أن يوسف لم يكن أبدا طفلا مثل باقي الأطفال.

"حينما قرأت رواية (رئتاي تبتسمان للموت قريبا) للمرة الأولى، ترسخت في ذهني فكرة أن القلم الجريء هو أقوى الأقلام وأعظمها!"

- ديراو داتسيدا

خيال
للنشر والترجمة

ISBN : 978-9931-738-27-5